14 me Année No. 700

Lundi — 20 — 12 — 1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٧٠٠ « القاهرة فى يوم الإثنين ٨ محرم سنة ١٣٦٦ — ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

ساعة فاصلة . . . !

للأستاذ محمود محمد شاكر

إذا المرء لم يحْتَلْ وقد جَدَّ جِدّه

أضاع وقاسَى أمرَه وهو مُدْبِرُ

ولكن أخو الحزْمِ : الذى ليس نازلا

به الخطْبُ إلا وهو للقصْد مُبصرُ

فذاك قريع الدهر، ماعاش، حُوّلٌ

إذا سُدَّ منه مَنْخِرٌ جاش مَنخرُ

وأىُّ خطب ! ! فنحن أمة قد عاشت أكثر من أربع وستين سنة تجاهد عدُواً لدوداً ، واسع الحيلة، كثيرَ الأعوان ، ينفثُ سمه حيث مشى ، ويُخفى غوائله ليكون فتكه أخفى وأنكى وأشدّ . فاتخذ لنفسه من صميم هذا الشعب رجالا خدعهم عن عقولهم ، وزيّن لهم أن يعملوا فى الدسيسة للأرض التى أنبتتْ عليهم شحومهم ولحومهم وحملتهم على ظهْرها هم وآباءهم وأبناءهم وذَرَاريهم ، وأظلّتهم سماؤها بالظلّ الوارف الظليل ، وسكَبَتْ فى نفوسهم سرّ الحياة ، وسقاهم نيلها بدَرّه الذى اشتدّت عليه أبدانهم وأحوالهم ، ومهّد لهم من المتاع ما أطغاهم وكان خليقاً أن يملأ قلوبهم شكراً ، وألسنتهم حمداً وثناء .

وزاد فأطلق فى جنَبات هذا الوادى أسراباً من صعاليك الأفاعى الأجنبية ، أخافت الوادِع ، ولدّغت السليم ، وذادَتْ عن سُهول هذا الوادى كل حىٍّ من أبنائه حتى ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبتْ وضاقت عليهم أنفسهم . ولم يزل ذلك دأبنا ودأب عدوّنا حتى أتاح الله الحرب العالمية الأولى فاستعلن من ضغينته وبغضائه ما كتم ، وأعلن الحماية على أرض مصر . فلما خرج ذلك العدوّ من لأوائها منصوراً مظفّراً ، لم يبال الشعب المصرى العزيز بسطوة ولا بأس ولا قوةٍ من حديد ونارٍ ، فثار ثورته العجيبة فى أوائل سنة ١٩١٩ ، وما كان يخيّل للعدو الباغى أن ذلك شىء ممكن ، وبعد لأى ما تحقّقَ من أنه شعب حديدُ العزم لا تُرْهبه القوة الباطشة ولا العدوان الغشوم . فاحتال له حيلة أخرى يفرّق بها بين الرجل وأخيه ، والأب وبنيه ، والأمّ وفلذات أكبادها ، فرمانا بالداهية الدّهياء التى جعلت الناس يختلفون بينهم على غير شىء إلا الُحكم والسلطان ، وتدسّس إلى قلوب الرجال شيطانٌ مَريدٌ هو : تلك الحزبية والعصبية للأشخاص ، فكادت تنقض بناء هذه الأمة حجراً حجراً .

ثم كان من رحمة الله أن جاءت الحرب العالمية الثانية ، فخرج منها عدوُّنا مرةأخرى منصوراً مظفراً ، فلم يبالِ الشعب المصرى وخرج يقول له : « اخرجْ من بلادى ، ورُدَّ علىّ جنوب الوادى » وكادَ يكون ما كان فى سنة ١٩١٩ ، ولكن العدو كان أسرع حيلة وأرشق حركة ، فنَصَّبَ رجالا منّا ليحملوا بلادهم على

سبيل مضلّة . فكانت هذه المفاوضات الخبيثة التي ظلت تدور شهراً بعد شهر إلى غير نهاية إلى يومنا هذا ، بيد أن الشعب نفسه ظل هادئاً متربصاً طوال هذه الشهور وهو عالمٌ أن المفاوضة كلامٌ لا يغني فتيلا ، وأن « الجلاء » حقٌ لا ينازعه فيه أحد ، وأن ضمّ السودان إلى أخته مصر حقٌ لن يعوقه عنه بطشٌ ولا جبروت ، وأن الحرية حقُّ البشر منذ يولدون إلى أن تُطمّ عليهم القبورُ . ومضت الأيام والشعبُ يسمع لجاج المفاوضة وهو غيرُ راضٍ ، ولكنه استنكف أن يحولَ بين طائفة من أبنائه وبين ما يظنون فيه الخير لبلادهم ، فتركهم يعملون ليعرفوا أخيراً ما عرفه هو بفطرته النقيّة : أنْ لاخير في مفاوضة الغاصب القويّ حتى يردّ على المغصوب الضعيف ما سلَبَ منه ، وأن الإباء هو خُلُق الأحرار ، وأن العزْمَ هو المنقذ من ضلال السياسة ، وأن اجتماع الكلمة على الجهاد في سبيل الحق هو الخلاصُ وهو سبيل الحرية .

وقد انتهت الآن هذه المفاوضات وجاءنا المشروع الذي يرادُ لنا أن نصدّق عليه ونقبله ، فللأمة حقُّها اليوم أن تقول كلمتها ، ولكل مصريّ أن يقول كلمته ، وليس لهيئة المفاوضة ولا لرئيس الوزارة أن يفتاتَ على حقّ الشعب بشيء لا يرتضيه الشعبُ ، فإن هذه ساعة حاسمةٌ في تاريخ الشعب المصريّ ، بل ساعة حاسمة في حياة أبنائنا الذي يدبُّون على الأرض ، وحياة النَّسْل المصري الذي يسري في الأصلاب حتى يأتي قدرُه .

وإنه لهولٌ أي هول أن ينفرد رجُلٌ أو فئة من رجال بالتصرُّف في هذه الأنفُس البشرية كأنهم أصحابها وخالقوها والنافخو الحياة في أبدانها . فالله الله أيها الرجال في مصاير بلادكم وأبنائكم وورثة المجد القديم الذي يطالبهم كما يطالبنا بأن نعيش أحراراً في بلادنا ، وبناةً لأمجادنا ، وحَفَظَة على تاريخ أجدادنا .

وليأذن لنا أولئك الذين يظنون أنهم كما قال الشاعر :

وعلتُ حتى ما أسائل واحداً عن علم واحدة لكي أزدادها

وليأذن لنا أولئك الذين يظنون أنهم مالكو رقاب هذا الشعب بعالمهم أو جاههم أو سلطانهم ، وليأذن لنا أولئك الذين هانت عليهم أنفسهم فضاقوا ذرعاً بإباء هذا الشعب أن يكون كَكِلاب الرُّفقة يشركهم في فضلة الزاد ، فإذا ضجروا به قالوا له اخسأ أيها الكلب ، وليأذن لنا المخلصون من الكُتّاب الذين يظنون أن التساهل والتغاضي لا بأسَ به ما دُمنا لا نملك أسطولا ولا طائرات ولا سلاحاً ولا قنابل ذرّية ، وأنه لذلك لا بد لنا من أن نحالف حليفاً قوياً ينصرنا إذ بُغي علينا ، ويردّ عنا إذا زحف عدو إلينا — ليأذن لنا أولئك جميعاً أن نتكلم بلسان مصر المظلومة المهضومة ؛ فإنها هي وحدها التي ينبغي أن تنطق وتقول ، فإن قولها هو القول الفصْل — لا قول العلماء الذين يرون أن لا علم إلا علمهم ، ولا قول أصحاب المال والسلطان ولا قول المتهاونين الذين يرضون من نيل الحق أيسر ما ينال .

إن هذه المعاهدة الجديدة التي تمخضت عنها المفاوضات الطويلة تقوم على أربعة آساس :

الأول : أن الجلاء سيتم بعد ثلاث سنين

الثاني : أن تمد مصر بأن تقوم مع انجلترا بالعمل الذي تتبيّن ضرورته في حالة تهديد سلامة أي دولة من الدول المتاخمة .

الثالث : مجلس دفاع مشترك يقرّر الرأي في الذي سموه « تهديد السلامة » وجعلوا له حق تنظيم الأسباب التي تسّهل مهمة اشتراك الجيش المصري مع الجيش الإنجليزي في الحرب .

الرابع : أن تكون الأهداف الأساسية في مسألة السودان هي تحقيق رفاهية السودانيين وتنمية مصالحهم وإعدادهم « إعداداً فعلياً » للحكم الذاتي ، وممارسة حق اختيار النظام المستقبل للسودان ، وإلى أن يتم ذلك بعد التشاور مع السودانيين تظل اتفاقية سنة ١٨٩٩ سارية وكذلك المادة ١١ من معاهدة ١٩٣٦ — هذا محصَّل ما تقوله المعاهدة الجديدة .

ومصر تقول إنها لا تثق بالمواعيد الإنجليزية المتعلقة بالجلاء فقد بلغ ذلك أكثر من ستين عاماً فلم تر إلا شراً ، وإنها لا تريد أن تُقِرّ ساعة واحدة للانجليز بالبقاء الشرعي في بلادها فكيف ترضاه وتوقع عليه وتعترف بشرعيته ثلاث سنوات طوالا .

وتقول إن تحديد السنوات خداع وبيل العواقب غير مأمون النية فإنها لا تدرى ماذا عسى أن يكون غداً أو بعد غد ، وإن الإنجليز قادرون إذا شاؤوا على الجلاء في أقل من ستة أشهر جلاء كاملا

عن كل بقعة من بقاع هذا الوادى ، فالإطالة مُرَادَةٌ لنفسها لأسباب جهلها من جهلها وعلمها من علمها . وقبيح بامرىء ذاق الذل من وعود الانجليز ستين عاماً أن يجهل شيئاً عن مثل هذا الوعد المدخول المكتّم بالأسرار .

أما الأساس الثانى : فان مصر تقول إن بلاء البلاد المتاخمة لمصر هو كبلائها مثلا بمثل . فالانجليز هم الجاذب الداعى إلى أن يعتدى عليها معتدٍ طاغٍ يريد أن يضرب انجلترا فى مكامنها ، كما كانوا سبباً فى عدوان الألمان والإيطاليين على مصر فى الحرب الأخيرة السالفة . فلماذا يريد الإنجليز أن يتخذونا أعواناً وأنصاراً على إذلال جيراننا ، وأن يجعلونا نعترف ضمناً بأن لهم حق الدفاع عن هذه البلاد التى سلطوا عليها بَغْى استعمارهم ؟ ولماذا تسفك مصر دماء أبنائها فى سبيل المحافظة على هذه الامبراطورية التى ملأت رحاب الأرض جوراً ؟

ثم إن هذا العدوان إذا وقع ، فهو النذير العريان بالحرب العالمية الثالثة ، والمعتدى فيه معروف منذ اليوم للانجليز ولغير الانجليز . والأسباب الداعية إلى انفجار هذا البارود راجع إلى أسباب أخرى غير الرغبة فى التوسّع . وهو جشع الاستعمار القائم اليوم فى هذا الشرق الأوسط والشرق الأدنى والهند . يوم يقع هذا العدوان فالدُّنيا كلها ستهبّ هَبة رجل واحد ، ولا يدرى أحدٌ منذ اليوم كيف يكون الأمر غداً وأين تكون مصلحته ، فعلام تريدنا إنجلترا أن نتعجّل ، وأن ندُخلَ نحن فى حروبها التى ضرّمتْ نيرانها منذ كانت ، وأن نفرض على أنفسنا منذ اليوم قيداً لعلّ غداً يأمرنا أن نعيد إلى خلافه حتى لانكون طعمة للمنصور إذا كانت إنجلترا هى الخاسرة ؟ أليس يقول لنا ذلك المنصور يومئذ ، لقد قاتلتمونى وحاربتمونى فأنا أستحلّ دياركم وبلادكم وأقداركم بحكم الفتح ؟ فماذا تقول مصر يومئذ ؟ ومن زَعَمَ أنّ سياسة الدنيا سوف تجرى غداً على النهج الذى جرت عليه حتى اليوم ، فقد أنكر عقله وأنكر تلك القوى العاملة التى تؤثر فى سياسات العالم . ثم لماذا تريد إنجلترا أن تكون قيّمةً على مستقبلنا ونحن شعبٌ حيٌّ حرٌّ يريد أن تكون بلاده ملكا له ليتوخى لها مراشدها التى ينبغى أن يتوخاها ؟ وإذا كان الانجليز يؤمنون بأن مصلحتنا غداً ستكون فى أن نكون معهم يداً واحدة ، فعلام الجزع إذن ؟ أو يظنون أننا نخرج غاصباً من بلادنا ثم ندعها نُهْبى تتعاورها أيدى لصوص الأمم فلا نؤازرهم فيما نرى أن لنا فيه منفعة وصلاحاً ؟ اللهم إن الانجليز يعلمون أننا على حق فى هذا كله وأنهم هم المبطلون ، وإنما يريدون بهذا النص أن يمكثوا فى بلادنا سادة يستضعفوننا ويمنعوننا أن نفعل فى بلادنا ما نريد ، أى أن نظل أمة لاجيش لها ، ولا مصانع فيها ولا قوة لها ، وأن تظل « مجالا حيويا » لها ولأشياعها وأفاعيها من نفايات الأمم وحثالات الشعوب ، وأن يكون وجودهم بيننا معواناً لهم على تفريق كلمتنا وتشتيت قلوبنا ، وأن يظل المصرى يحس بهذا الاحساس القبيح الذى يوهن القوى ، وهو أنه غريب فى بلاده .

أما الاساس الثالث : فهو شىء باطل كله لأنه مبنى على الثانى ، ولأنه شىء لامثيل له فى تاريخ معاهدات الدنيا كلها ، ولأن أخطاره على مصر أخطار موبقة . فان كلمة القوى هى العليا ؛ فاذا قلنا لانجلترا إننا نرى كذا وكذا ، وقال إنجليز هـــذا المجلس ، كلا إن هذا ليس لنا برأى ! فمن يكون الفَيْصل بيننا يومئذ ؟ أليست هى قوة الانجليز نفسها ؟ وإذا كانت مصر تخرج اليوم من استعباد خمس وستين سنة ، فهل تظن أن الرجال المصريين الذين سيضمهم هذا المجلس ، سوف يكونون أو يختارون إلا ممن ترضى عنهم إنجلترا وتقول إنها تستطيع « العمل معهم » ؟ هل يظن غير هذا عاقل ؟ يالهذه من سخرية بنا وبعقولنا وبعقول كل من يقرأ هذه السفسطة الانجليزية ! .

أما الأساس الرابع ، فان مصر لم تعترف قط باتفاقية سنة ١٨٩٩ ولن تعترف بها ، وهذه المعاهدة تريدنا أن نعترف بها ، وتريدنا أيضا أن نرضى سلفاً عن أبشع المبادىء التى لاعقل فيها . وهى بتر جنوب مصر عن شمالها . فالسودان ليس أمة نحن مستعبدوها بل هى جزء من مصر من أقدم عصور التاريخ ، وهى أهم لمصر من مصر نفسها بشهادة عقلاء الساسة من إنجليز وغيرهم . ولو فرضنا أن فئة أضلتها الأموال الانجليزية والوعود البريطانيـــة والأكاذيب الملفقة ، قامت فى السودان وقالت : إنى أريد أن أكون أمة وحدى ودولة وحدى ، فهل يُقبل هذا إلا إذا قبلت إنجلترا مثلا أن تقوم أسكتلندة — وبين الاسكتلنديين

على هامش النقد :

من مفارقات التفكير ...!

الأستاذ اسماعيل مظهر وكتاب الأغلال

للأستاذ سـيد قطب

لا يزال الإنسان يصادف بين آونة وأخرى صنوفا من مفارقات التفكير ، ما كان ليتصورها لو لم تقع فعلا فى الحياة ، وتبدو آثارها للعيان . فقد تجد الرجل المحقق المتفوق فى علم أو فن ، يبدى فيه الرأى ، فإذا له الكلمة الصائبة ، والنظرة النافذة ... ثم يجاوز مادة تخصصه إلى شأن آخر ، فيأتى بالكلام الذى لا تصدق نسبته إليه إلا إذا قامت لك البراهين على أنه هو قائله ؛ لأنك تجد عندئذ رجلا آخر لا تعرفه ، دون ذلك الرجل بمراحل ومسافات .

وأقرب مثل يحضرنى اليوم هو الأستاذ اسماعيل مظهر . فما لا شك فيه عندى أن الرجل مثقف مطلع ، ذو مشاركة طيبة فى الحركة الفكرية المعاصرة .. ولكننى رأيته يكتب فى جريدة الكتلة مرة ومرة عن كتاب « هذى هى الأغلال » بطريقة عجيبة ، فمرة يقول : إنه يساوى ثقله ذهباً ؛ ومرة يرتفع بصاحبه على مقام جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ! ويخلو أسلوبه على كل حال من التمحيص والاتزان اللذين أعهدهما فيه ...

وعجبت من أن يكتب رجل كالأستاذ اسماعيل بمثل هذا الأسلوب ، وأن يعتقد فى مثل هذا الكتاب وصاحبه ذلك الاعتقاد ... وظللت متحيراً فى هذه الظاهرة العجيبة . وكنت قد قرأت الكتاب فوجدت صاحبه يتعلق بالتافه من خرافات العوام ، ومن الأضاليل الخرافية التى حاربها الزمن فى البيئة الإسلامية وانتهى من حربها منذ خمسين عاما أو تزيد . يتعلق بهذا التافه فيصول ويجول فى الكفاح والنزال ، ويبدو — كما قلت فى مجلة السوادى — فى هيئة « دون كيشوت » يطعن فى الهواء يحسب طواحين الهواء فرسانا ، وزقاق الخمر قساوسة !

والانجليز من الفروق ما لا يوجد مثله بين مصر والسودان — فتقول : سوف أكون أمة وحدى ودولة وحدى . أفترى إنجلترا تقول يومئذ نعم ونعمة عين وتخلى بينهم وبين ما يريدون ، أم تخضعهم يومئذ بقوة السلاح وبالحديد والنار كعادتها فى كل بقاع الدنيا ؟ ونحن ولله الحمد ليسَ بيننا وبين السودان مثل هذا ، بل السودان كله ، إلا من طمس مال الانجليز قلبه ، كلمة واحدة على أنه جنوب مصر لا أنه أمة وحده أو دولة وحده .

إن مصر لا تستطيع أن تفرط فى بتر السودان من جسمانها ، فان فى ذلك هلاكها وهلاك السودان جميعاً . فليقلع عن هذا الرأى كل من غفل عن حقيقة الوطن المصرى أو الوطن السودانى ، فمعناهما سواء .

بقى شىء واحد هو أن إنجلترا قد خرجت من هذه الحرب فى المرتبة الثالثة من دول العالم . فإذا جاءت الحرب الثالثة فانجلترا خارجة منها لا محالة كما خرجت فرنسا — أى إنها سوف تخرج ولا تملك غير الجزيرة البريطانية إن بقيت لها ، فعلام نربط مصايرنا بمصير مظلم يُفزّع أهله منذ وضعت الحرب الأخيرة أوزارها ؟

وكان ينبغى أيضاً أن لا يغيب عن أذهان أولئك الأذكياء أن هذه الفرصة إذا أفلتت فلن تعود ، فإن انجلترا اليوم لا تملك أن ترغمنا على شىء ، وإنها لتهددنا وتبدئ وتعيد فى تهديدها ، ولكننا إذا صبرنا وعزمنا وأبينا ميسم الذل الذى تريد أن تسمنا به ، فهى لن تملك إلا التسليم بلا قيد ولا شرط . فكان عليهم أن يكونوا أبصر بخير هذه الأمة المجاهدة المصرية ، وأجرأ على تلك الأمة الانجليزية ، ولو فعلوا لرأوا عجباً ، فإننا إنما أُتينا من قبل الخوف والهيبة والعجز عن إمضاء العزيمة على وجهها ولكن لم يفت الأوان بعد ، فاحملوا على أنفسكم أيها المفاوضون المصريون واملأوا قلوبكم إيماناً بالله ، وإخلاصاً للوطن ، وأجمعوا رأيكم وارفعوا النير عن هذا الشعب بالإباء والأنفة والحمية ، ورفض المفاوضة والمعاهدة ، فإن إنجلترا لن تملك يومئذ صرفاً ولا عدلا ، فإن لم تفعلوا فالله من ورائكم محيط . واحذروا غضبة الشعوب فان لغضباتها مواسم ككىّ النار هى ذل الدهر وسُبّة الأبد .

محمود محمد شاكر

ثم ينتهى فى التواء إلى أن هذه هى العقلية الدينية الإسلامية ؛ فهى إذن عقلية لا تصلح للحياة ولا لوراثة الأرض . بينما الأوربيون يتبعون منطق الحياة ، فهم إذن أولى بوراثة الأرض من أصحاب العقلية الدينية . وإذن فما يحق للشرق أن يثور على استعمار ولا أن يحنق على مستعمرين ! وتلك هى النتيجة الحتمية لكل مقدمات الكتاب . ولعلها هى الهدف الأول الذى لف فى طواياه !

ولا ينتهى الرجل إلى هذه النتيجة وحدها ، عن هذا الطريق الملتوى الملئ بالمغالطات ، إنما ينتهى إلى نتيجة أخرى — لعلها هى التى قادته إلى سلوك هذا المسلك المريب ؛ ولعلها كانت رائده فى كتابه وفى حياته .. تلك أن العنصر الأخلاقى يجب أن ينفى من الحياة . فكل ما يقال له روح وضمير وخلق ودين ... إن هو إلا « أغلال » ومعوقات وتعلات فارغة لا تجدى ؛ والمعول فى الحياة على القوة المادية : قوة الصناعة والتجارة والمال !

ولعل الرجل يطبق فى كتابه وسلوكه تلك المبادئ الذهبية ! أقول عجبت من أن يبذل الأستاذ مظهر إعجابه كله لمثل هذا الكتاب المريب فى هذا الأوان ، إلى درجة أن يستخفه الإعجاب ، فيفارقه ما عرف به من النفاذ والتؤدة والاتزان ... ولكن أخيراً تكشف لى السبب ، فبطل منى العجب ؛ وذلك فى كلمة افتتاحية فى المقتطف الأخير عن كتاب « هذى هى الأغلال » أيضاً !

إن الأستاذ اسماعيل فيما يظهر قد استغرقته الدراسات الفلسفية والدراسات العلمية — وفى أوربا خاصة — فلم يجد وقتاً يتتبع فيه الحركة الفكرية فى الشرق العربى — وفى مصر خاصة . فظل يعتقد مخلصاً فى اعتقاده أن أهم ما يشغل بال المسلمين فى الآونة الحاضرة من أمور دينهم ودنياهم مسائل من نوع : [الكلام فى مثل ما تكلم فيه السيوطى فى كتابه « كشف المعمى فى فضائل الحمى » وكتابه « الطرثوث فى فضل البرغوث » أو ما تكلم فيه ابن حجر العسقلانى فى كتابه « بذل الماعون فى فضل الطاعون » أو ما ترى فى كتب المناقب وغير كتب المناقب فى الخرافات التى تهلع لها قلوب الأحرار ، والأساطير التى تهتز لها الأرض وتفزع السماء ، أو البحث فى من يحمل فوق ظهره قربة ملئت فُساء هل تصح صلاته بها ام ينتقض وضوؤه] كما كتب فى هذه الافتتاحية العجيبة !

وهذه هى الخرافات التوافه التى أخذ المؤلف يبدئ فيها وفى أمثالها ويعيد ، ويصم التفكير الإسلامى كله بأنه يصدر عنها ؛ ثم أخذ ينازلها كما نازل « دون كيشوت » طواحين السماء ، ويشقها بسيفه كما شق « دون كيشوت » زقاق الخمر ! والتى خيل للأستاذ مظهر أنها كذلك تشغل بال المسلمين فى هذه العصور ، فأخذ بالقوة التى يهاجمها بها مؤلف الأغلال ، فقال :

« أنتصر لهذا الكتاب ، لأنى أشتم فيه ريح القوة والجبروت والعزة التى هى من صفات الإسلام ، وليست من صفات المسلمين ! !

وهنا زال عجبى وعرفت القصة . فالأستاذ اسماعيل مظهر بقدر ما هو عالم ومطلع فى الفلسفة الحديثة والعلم الحديث ، بعيد كل البعد عن حركة الفكر الإسلامى فى القديم أو فى الحديث . فكل حديث عنها فى نظره إعجاز وإبداع ! !

ومثل إعجابه البالغ الذى لا يتحفظ فيه بهذا الكتاب كمثل من يعجب أشد الإعجاب برجل يشنها حرباً شعواء على من يقولون : إن الأرض محمولة على قرن ثور . فما تزيد معظم الخرافات التى تصدى لها المؤلف فى أهميتها اليوم وفى مقدار اعتقاد الناس فيها ، على اعتقاد بعض العامة أن الأرض محمولة على قرن ثور !

ويا ليت إخلاصاً يبدو فى ثنايا الكتاب ، حتى مع هذا التمحل وهذا التزوير المدسوس على عقلية الشعوب الإسلامية فى العصر الذى نعيش فيه ؛ إنما هنالك الريبة التى تخالج القارئ حين يذهب فى القراءة إلى النهاية ، فيشم رائحة غير نظيفة تشيع بطريقة ملتوية خبيثة ، رائحة إشعار الأمم الشرقية بأنها لا تستحق وراثة الأرض ، ولا تستحق سوى العبودية والذل ، وأن الأمم الأوربية هى التى تستحق هذه الوراثة ، وأن العرب خاصة فى حاجة إلى حماية الانجليز والأمريكان لهم ، لأن الخطر الصهيونى يتهددهم وهم عُزل من كل قوة ، ولا سند لهم إلا قوة خصومهم من الانجليز والأمريكان!

ترى هذه هى « ريح القوة والجبروت والعزة التى يتحدث عنها الأستاذ اسماعيل؟ اللهم إن رجلا بعيداً عن كل اتصال بحركة الفكر الإسلامية ، راعته البديهيات الساذجة التى يسوقها رجل مريب ، فلم يتنبه فى — زحمة الروعة — لهذا العنصر المريب !!

***

وكتب الأستاذ « عبد المنعم خلاف » فى عدد « الرسالة » الماضى يشير إلى مانبهت إليه من سرقة المؤلف لأفكاره فى كتابه « أومن بالإنسان » وادعائه أنه لم يسمع بموضوع هذا الكتاب!

قلت فى كلتى بمجلة (السوادى) إننى لم أحترم هذا التجاهل ، لأنه ليس سمة الباحثين المخلصين . وقال الأستاذ عبد المنعم بعد أن قرر أنه فرح لانتشار فكرته التى دعا إليها ست سنوات ، فكرة الإيمان بالإنسان والاعتقاد بأن الحياة صادقة .

«ولكن ما لبثت هزة الفرح والابتهاج أن انقلبت إلى أسى ووجوم واشمئزاز إذ رأيت الكتاب يخلو من أدنى إشارة إلى تسجيل سبق فى هذه الدعوة ، وإذ رأيت صاحبه مع ذلك يحدث ضجة مفتعلة حوله ، ويصدر غلافه بهذه الجملة :

(سيقول مؤرخو الفكر : إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل - وإنه ثورة فى فهم الدين والعقل والحياة ...) كأن مؤرخى الفكر عميان لا يتلمسون مصادر الآراء !

«وإنى أعجب كيف يجرؤ كاتب أو مفكر يحترم رأى الناس ، ويستحى من نفسه . أن يسبق التاريخ ويصدر حكمه على عمله بهذه الدرجة من الافتتان والزعم !

«إن المفكر الواثق من أنه أتى بجديد حقاً ، يضع آثاره بين يدى التاريخ فى صمت ، ويدع له أن يحكم ، ولا يتعجل الحكم حتى تعلنه الأيام سواء فى حياته أو بعد مماته ... والمفكر الأمين الثقة الغيور على الحق وحرية الفكر يترفع عن أن يغمط حق غيره ، وعن أن يغطى جهود من سبقوه بالدعاوة الجريئة لنفسه ، لأن هذا إن جاز فى مجاز الإعلان عن المتاجر والمهن ، فلن يجوز فى رحاب الفكر والخلق .

ولكن ما للمؤلف وللحديث عن الأخلاق ، وهو كما روى عنه الأستاذ سيد قطب فى مجلة « السوادى » يرى (أنه يجب أن ننفى المنصر الأخلاق من حياتنا ، فالحياة لا تعرف العناصر الخلقية ، ولا قيمة لها فى الرقى والاستعلاء) » .

والأستاذ عبد المنعم يحاكم الرجل إلى مبادئ ومثل يقول هو عنها : إن التشبث بها هو سبب تأخر الشرق وجموده . فما الخلق ؟ وما الضمير ؟ وما الحياة ؟ إنها كلها « أغلال » تقيد الخطو وتخلق العثرات . إنما المهم كما يقول هى الأخلاق الصناعية والتجارية والمالية ! !

والواقع أنها جرأة عجيبة ، ولكن لماذا لا يجرؤ الرجل ، وفى مصر كتاب كبار لا يتنبهون لهذه الجرأة العجيبة ، فيسبغون على فكرة مسروقة ومستغلة استغلالا مريباً كل هذا الاهتمام والإعجاب ؟

ولكننى أعود فأستدرك : فلعل هناك اتهاماً للأستاذ عبد المنعم ، وطعناً فى ضميره وخلقه ووطنيته حين نذكر أن فكرة الأغلال مسروقة من كتابه « أومن بالإنسان » .

إنها مسروقة نعم فى عمومها وفى الكثير من قضاياها ، ولكن الأستاذ عبد المنعم كان يعالج فكرته فى استقامة ونزاهة ، ويحسب للدين وللخلق وللضمير حسابها فى قيم الحياة ، وحين دعا إلى الإيمان بالإنسان مستدلا بما أبدع فى الأرض بفكره ويده ، لم ينس أنه يهدف إلى قضية أكبر ، وهى قضية الإيمان بخالق هذا الإنسان وقضية التسامى بضمير هذا الإنسان .

ولقد وافقت الأستاذ عبد المنعم على قضيته وأهدافه ، وخالفته فى طريقة استشهاده ، وودت أن يفسح للوجدانات الروحية ، وللأعمال الفنية مكانا أكبر فى الاستشهاد على عظمة هذا الإنسان ، ليكون نشيد الإيمان به أوسع وأشمل ، حين نضم إلى إبداع فكره ويده إبداع وجدانه ومشاعره .

أما هذا الرجل ، صاحب الأغلال ، فيأخذ الفكرة لينحدر بها انحداراً عن مستواها ، وليبدو فيها ضيق الآفاق لا يتصور أن الإنسان جسم وروح ، وأن الحياة مادة ومعنى . ثم ليستخدم الفكرة فى الزراية على الشرق عامة والمسلمين خاصة ، وليحطم فى نفوسهم كل شعور بالعزة ، وليسود عليهم مستعمريهم ، وليثبت هم أنهم فى حاجة إلى قوة هؤلاء المستعمرين ، إلى أن يتخذوا طريقهم فى الإنتاج !

وما يخدم قضية الاستعمار فى طورها الحالى كما يخدمها بث هذه الروح . وإذا كان الشرق يعتز فى جهاده للاستعمار بماضيه وبعقائده وبكرامته القومية ، وبعدد من مثل هذه المعنويات . فهذا رجل منه يقول له : إنما تعتز بترهات جوفاء . والمستعمر أحق بوراثة الأرض منك ، فلتحن هامتك إذن ، فتلك سنة الحياة!

وبدلا من أن ينبه النقاد الكبار إلى هذا الاتجاه المريب يؤخذون بالدعاوة المفتعلة ، ويبذلون إعجابهم المطلق للكتاب وصاحب الكتاب ! والرجل والحق يقال : ماهر فى الدعاوة ، لا تقيده فيها الأغلال ! !

ألا إنه لكتاب يساوى ثقله ذهباً ، كما قال الأستاذ مظهر . ولعل من تهمهم مثل هذه الكتب لم يبخسوا الكتاب قدره وكل الدلائل تشير إلى أنهم لم يبخسوه قدره ، والحمد لله ! .

سيد قطب

نحو عالم جديد :

أندريه مالـــــرو

André Malraux

فنه وتفكيره

للاستــــاذ علي كامل

لعل من النادر أن نرى بين أدباء الغرب المعاصرين أديباً يمثل روح العصر الحاضر مثل الأديب الفرنسى الشاب أندريه مالرو . وهو من هذه الناحية ومن حيث تأثير فنه على عقلية شباب هذا الجيل الذى نعيش فيـه يقف إلى جانب الـكاتب الـكبير أندريه جيد . إلا أن كلا منهما يتميز من حيث المشكلة التى يطرقها ويسعى لحلها . فأندريه جيد يكاد يقتصر فنه على معالجة المشكلة الجنسية التى يعتبرها مشكلة المشاكل ، بينما يطرق مالرو الشخصية الإنسانية بأكلها ، بكامل غرائزها ساعياً لتحديد موقفها فى هذا العصر المضطرب الطافح بالانقلابات والتطورات .

كان أندريه مالرو منـذ ابتداء حياته الأدبية كاتباً اجتماعياً لايستطيع أن يتصور كيف يمكن للأديب أن يبتعد عن معالجة مشاكل المجتمع الذى يعيش فيـه واتخاذ موقف محدد حياله . كان ألد عدو لذلك النفر من الأدباء الذين اتخذوا من خيانة الفكر مذهباً أسموه (الفن للفن) أو (البرج العاجى) يقبعون فيه غير عابئين بمـا يدرر حولهم من مآسى الحياة ونكباتها حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى اعتبار أن مجرد المساس بحقائق الحيـاة المحزنة الدامية تشويه « لجمال » فنهم ! ! ؟ إن هذه الزمرة من الأدباء فى نظر مالرو ونظرائه من الأدباء الاجتماعيين ما هى إلا طائفة من المرائين الذين اتخذوا القلم سلماً للوصـول والنفعية ، وهم قبل كل شىء يعملون — بوعى أو بغير وعى — لخدمة مصالح الطبقات المميزة فى المجتمع الإنسانى ، وهـذه الطبقات لا يهمها معالجة مشاكل الحياة القاسية لأنها لا تعانى ويلاتها بل من مصلحتها — إذا لحتها فى طريقها — التغاضى عنها وتعمد تجاهلها ؛ لأن أنانيتها لا تتفق وافتضاح الخلل فى المجتمع الذى تعيش على حساب تعاسته ، وتصمد‌قة الجد على جماجم شهدائه

على أن مالرو لم يقتصر على استخدام قلمـه لخدمة المجتمع الانسانى ، بل كان يهب كلما سنحت الفرصة ليخدم بقوة السلاح المبادئ السامية التى يؤمن بعدالتها . فلم تكد تنشب ثورة الصين التحريرية حتى سافر إليها يعمل إلى جانب جيوش الوطنيين فى سبيل المثل الأعلى الذين يدافعون عنه . وعندماقامت الثورة الأسبانية الجمهورية بادر بالسفر إلى أسبانيا ليعمل فى جيوش الجمهورية الشابة كطيار مدافعاً عن سماء مدريد الشهيدة . وأخيراً لم تـكد تخر فرنسا على ركبتيها عام ١٩٤٠ صريعة الخيانة حتى عاد مالرو إلى حياة الـكفاح العملى فأبى أن يهجر وطنه فى محنته وانضم إلى العصابات الفرنسية الداخلية ليكافح الغاصب . وعلى رغم هذه الحياة المضطربة الخطرة لم يهمل مالرو قلمه وهو سلاحه الأول للتعبير عن تفكيره فاشتغل فى كتابة قصة طويلة من ثلاثة أجزاء بعنوان : (الصراع مع الملاك) La Lutte avec L' Ange وانتهى من الجزء الأول وهو (أشجار التنبرج) Les Noyers de L' Altenburg الذى نشر فى سويسرا عام ١٩٤٣

* * *

كانت أول أعمال مالرو إصداره كتاباً صغيراً بعنوان: (إغراء الغرب) La Tentation de L' Occident وهو عبـارة عن رسائل يقارن فيها الـكاتب بين المدنيتين: الشرقية والغربية ، ونحس حين قراءتها بألمه وخيبة آماله فى مدنية الغرب . وسرعان ما لفت هـذا الـكتاب الأنظار إلى مؤلفه الذى أحس النقاد بنواحى التجديد فى تفـكيره وما يختزن فى صدره بمـا يبشر بظهور لون جديد من ألوان الأدب العالمى . وفى عام ١٩٢٨ ظهر كتاب مالرو الثـانى الفاتحون Les Conquérants وهو أقرب إلى تحقيق صحفى منه إلى قصة . وفى عام ١٩٣١ ظهر كتابه الثالث (الطريق الملكى) La voie Royale . وفى عام ١٩٣٣ أخرج مالروقصته : (الطبيعة الإنسانية) La Condition Humaine التى نال بها جائزة جونكور لذلك العام ؛ وهى أكبر الجوائز الأدبية الفرنسية .

وتفكير مالرو الذى يسيطر على جميع أعماله يتحدد منـذ صدور كتابه الفاتحون ثم يجلو ويبلغ أقصى وضوحه فى (الطبيعة الإنسانية) . كانت هاتان القصتان حدثاً جديداً فى الأدب الغربى

إذ لم يسبق أن عالج الفن القصصي مشاكل المدنية الغربية بالطريقة التي عالجها بها مالرو في هذين الكتابين ، وسار على نهجهما في كتبه التالية ؛ وذلك من حيث التجديد في الفكرة وحرارة الأسلوب وطهارة الإخلاص .

يرى مالرو أن الإنسان منذ فجر التاريخ يميل « بطبيعته » إلى الثورة على الأمر الواقع وتحسين الحالة الراهنة واكتشاف ما يحيطه من المجهول ، وكانت الأديان أقوى وسيلة لتهدئة هذا الجموح الطبيعي وإطفاء هذا الغليان الغريزي ، وظل تأثيرها قويّ المفعول مدى قرون طويلة وأحقاب عديدة . ولكن الآن والمدنية الغربية قد بلغت مرحلة لا احترام فيها للعقائد ولا مراعاة لسنن الأديان ، بل ولا اعتبار للأسس التي قامت عليها هذه المدنية التي أوشكت أن تنهار دعائمها بعد أن طفحت القلوب بالشك في قيمتها . الآن ، ما هو موقف (الإنسان) و(النفس الإنسانية)؟ ما هو موقف الفرد الأوروبي أو غير الأوروبي إذا كان من أبناء المدنية الحديثة المتأثرين بتياراتها المتحررين من كل قيد تقليدي ؟

يرى مالرو أن الإنسان الجديد يقف أمام أحد أمرين لا ثالث لهما : فإما الاستسلام للأمر الواقع والتردي في هذه الفوضى الغاشمة التي لا ضابط لها ولا حياد فيها ؛ وإما التعلق بمثل أعلى لخدمة نفسه وخدمة المجتمع البشري كما يتعلق الغريق المحتضر بقارب النجاة .

أما الأمر الأول فهو طريق الضعفاء فضلا عن أنه لا يتضمن جمال الإحساس بالقيام بعمل سام جميل . وأما الأمر الثاني فهو الطريق السويّ الطبيعي لذوى النفوس العالية ، والإنسانية الواسعة ، وهو الطريق الذي اختاره أندريه مالرو لأبطاله مصوراً حياتهم وطريقة تفكيرهم ، وضروب تضحيتهم وسمو إيمانهم . فنرى (جارين) في قصة (الفاتحون) و(كيو) في قصة (الطبيعة الإنسانية) شخصيتين من تلك الشخصيات التي لا تستطيع الخضوع لحياة لا غرض لها إلا قضاء أيام متشابهة مملة . فهما يعانيان ذلك المرض الذي لا يختلف كثيراً عن المرض الذي يسمونه مرض القرن والذي — كما يرى مالرو — هو بالنسبة لفئة من الناس مرض جميع القرون ... إن هذه الدنيا لا تكفيهم . إنها لا قيمة لها إذا لم تمنحهم الفرصة لانفجار كل نواحي الكفاح والنشاط فيهم . إن حياتهم لا مبرر لها ولا قيمة إذا لم يحققوا للانسانية أفكاراً سامية .

ولما كانت كل مصائب المجتمع الحاضر مبعثها الظلم الاجتماعي وعلاجها إيجاد مجتمع بشرى تسوده العدالة الاجتماعية والأخاء الإنساني . لهذا تعمد مالرو اختيار أبطاله من رجال المثل العليا في السياسة والاجتماع . فإصلاح المجتمع في نظره وتسييره في الطريق الذي تفرضه روح العصر هو الأساس الذي بغيره لا يرجى إصلاح في العلم أو الفن أو الأدب أو الأخلاق أو غيرها .

كان (جارين) ثائراً على كل شيء . كان ثائراً على المجتمع ، كان ثائراً على الغرب وماديته فهجره إلى الصين حيث الملايين الحاشدة بنشر بينها تعاليم الاشتراكية ويبين لها حقها في الحياة . كان ثائراً على الدين لأن الأديان في نظره كانت دائماً على مر القرون هي الميناء الذي تهدأ عنده ثورة النفوس البشرية ويخمد جموحها . كانت العزاء والملاذ الأخير لكل منكوب (إذ كيف يمكن لمصاب بالبرص — كما يقول — أن يستسلم لمصيره ولا يسمم الآبار التي يقترب منها إذا لم يفض قلبه بالأمل في حياة ثانية حيث تعوضه العدالة عن مصيبته وينال النعيم الأزلي ؟) .

جارين يريد أن يعيش واقعياً بكل ما في هذه الكلمة من معان . إنه يريد أن يحقق الجنة الأرضية لأنه مثالي يؤمن بالمثل العليا ويوقن بإمكان تحقيقها بالجهاد والتضحية . إنه يستهين بالمخاطر ويواجه الموت إلى جانب الأحرار الصينيين في ثورة كتنفرن راضياً مطمئناً . ومثل شخصية جارين نرى شخصية (كيو) وشخصية الطالب (تشن) في قصة (الطبيعة الإنسانية) . هذين الشابين الصينيين اللذين آمنا إيمان المؤمن بدينه بعدالة قضية الصين في جهادها التحرري . هذه الشخصيات الثلاث نراها جميعاً تلقي بنفسها في ذلك المحيط الثوري بقوة عنيفة ودافع خفي مستعذبين كل تضحية ؛ لأن المثل الأعلى عندهم دين كسائر الأديان ، والدين في حاجة إلى شهداء . ومن ذلك نرى أن أندريه مالرو لا يعتقد أن هناك فرقاً بين هؤلاء المثاليين وأولئك المتدينين الأوائل الذين كانوا يحطمون الأوثان وأقصى آمالهم في الحياة أن يتعذبوا من أجل عقيدتهم الدينية . فتصوير هذا النوع الشائع من الشبان المثاليين المتحمسين هو أهم ما يطبع كتب مالرو بطابع القوة والعظمة .

وللقارئ أن يتساءل لم اختار مالرو حوادث قصته (الفاتحون) و (الطبيعة الإنسانية) في الصين النائية كما ذكرنا . أليس في بلاد الغرب مجال لظهور هذه الشخصيات ؟ ألم يجد في غير الصين

مجالا لظهور الأبطال وأعمال البطولة ؟ إن مارلو العالمي التفكير يتبع النهضات القومية أينما هبت . فكما اشترك بنفسه في كفاح الصينيين القوى مما أوحى إليه كتابة قصتيه هاتين ، كذلك حارب في صفوف الجمهوريين الأسبان كما عرفنا ، وكتب عن الجمهورية الشابة قبل أن تئدها الرجعية الفاشية كتابه المشهور (الأمل) Espoir (١٩٣٧) . لقد وجد مارلو في هذه البلاد الحية بحركاتها الشعبية مجالا خصباً لذلك النوع من الأبطال الذين اختارهم لقصصه . فهو يرى أن العالم الغربي أصبحت تسوده للأسف الوطنية المتعصبة . فالحدود مغلقة ، والمادية تطغى على كل شيء ، والفردية يلمسها المرء أينما حل . فأوروبا الحاضرة في نظر مارلو لم يعد فيها إلا نوعان من الكفاح : الأول كفاح العالم الذي يفنى السنين في اكتشاف علمي وهذا الأمر ليس في متناول غير العلماء المتخصصين ، والثاني كفاح رجال الأعمال لتكوين الأموال مما صبغ الحياة كلها بالمادية البذيئة التي لا تعرف الرحمة . أما هناك ، هناك في الشرق البعيد حيث ألف بين الناس البؤس المشترك والشقاء العميم ، حيث وحد بين قلوب الملايين الغفيرة الإيمان القوى والقلق العام والحساسية المرهفة ؛ هناك الحقل اليانع لأصحاب المبادئ السامية والمثل العليا الجريئة التي سرعان ماتتشبث بها الجماهير وتتفانى في خدمتها بمجرد إحساسها بأنها طريق الخلاص ، واقفة منها موقف المؤمن بدين جديد جاء ليغير حياته ويبعثه بعثاً جديداً .

* * *

ولقد كانت في الحرب الحاضرة ومحنة فرنسا مادة غزيرة أمام أندريه مارلو لدراسة الشخصية الإنسانية في ظروف جديدة وأماكن غير الأماكن التي وقعت فيها حوادث قصصه السابقة . فكتب كتابه الأخير (أشجار التنبرج) وهو كما ذكرنا الجزء الأول من قصة طويلة في ثلاثة أجزاء بعنوان (الصراع مع الملاك) .

و (أشجار التنبرج) عبارة عن ثلاثة أقسام : القسم الأول تقع حوادثه في يونية عام ١٩٤٠ في أحد السجون في بلدة شارتر بفرنسا . وفي القسم الثاني يصف الكاتب حياة والده حتى الحرب العالمية الأولى فنعرف منه أن والده ألزاسي المولد بقي في الألزاس حتى عام ١٨٧٠ ثم عين مدرساً في جامعة استانبول واختير بعد ذلك مستشاراً للجنرال أنور باشا ، ثم أرسل في مهمة إلى أفغانستان

وبعد سنين طويلة في تلك البلاد الشرقية يعود إلى وطنه الألزاس حيث يموت والده (جد الكاتب) بعد وصوله بفترة قصيرة . وفي الألزاس يشترك في (أحاديث التنبرج) وهي أحاديث تدور على موضوعات معينة في كنيسة قديمة حيث يجتمع تحت زعامة عمه (والتر) نخبة من المثقفين والعلماء والأساتذة من مختلف البلدان ، وفي عام ١٩١٥ تقوده الحرب إلى جبهة الفستولا ، حيث يشترك في هجوم بمساعدة الغازات السامة . وهناك يترك المؤلف والده مغشياً عليه في ساحة القتال ؛ منهك القوى أثر المناظر الوحشية التي شاهدها ومن تأثير الغاز . يتركه ليعود إلى نفسه ، وعندئذ يبدأ القسم الثالث من القصة فنرى أنفسنا في عام ١٩٣٩ نصحب المؤلف في سيارته المدرعة حيث يواجه مع رفاقه الموت الحاصد الذي يخرجون منه بأعجوبة فينظرون إلى العالم تحت ضوء فجر جديد لامع ، وبعيون جديدة ، عيون نسيت الماضي ولم تعد تعرف غير الحاضر . وهنا تنتهي قصة (أشجار التنبرج) أول جزء من قصة (الصراع مع الملاك) .

ومنذ بداية هذه القصة أيضاً في ذلك السجن الموحش المعزول عن العالم الخارجي ، نرى أندريه مارلو يعود إلى موضوعه الرئيسي وشاغله الأول في كل ما كتبه وهو (الإنسان) ...

اسمعه وهو يقول : (منذ عشر سنوات لا يشغلني ككاتب غير موضوع واحد هو الإنسان . ذلك هو الموضوع الأساسي في فني) . وهذا الشاغل نفسه يتملك والده أيضاً حين يقص علينا مارلو حياته ويروى لنا (مقابلاته) مع الإنسان ، وهي مقابلاته الشخصية مع الموت والقسوة الانسانية والقدر الغامض . يقول والده : (إن اللغز الأكبر ليس في أنه ألقى بنا دون حساب بين المواد المتفجرة الغزيرة وبين الكواكب . بل إننا ونحن في هذا السجن كنا نستمد من أنفسنا صوراً قوية لتكذب واقع حياتنا وهو أننا كائنات لا وجود لها) وهذا اللغز هو ما تريد (أحاديث ألتنبرج) أن تكشفه . فكل المناقشات تدور حول هذه المسألة . هل يمكن إيجاد تحديد معين لمعنى كلمة إنسان ؟ (إن الإنسان بمعناه الحقيقي ما هو إلا أسطورة . هو حلم في ذهن المفكر) . فما الذي نعرفه عن الإنسان ؟ إننا لا نكاد نعرف شيئاً (لحتى الثقافة لا تعلمنا شيئاً عنه . إنها تعلمنا بكل بساطة ماهية الرجل المثقف بقدر ماهو عليه من ثقافة) إننا نعرف

فقط (أننا لم نخَيَّر حين ولادتنا وأننا سوف لا نخَيَّر عند موتنا ، وأننا لم نختر والدينا ، وأننا لا نستطيع شيئاً حيال الزمن ، وأن بين كل منا وبين العالم فاصلا معيناً . وعند ما أقول إن كل إنسان يحس بقوة بوجود القدر فأنني أقصد أنه يحس — بحرارة ومن وقت لآخر على الأقل — باستقلال الكون عنه وإهمال المجتمع لشأنه) .

هذا الإحساس المرير من جانب الفرد بعزلته في هذا العالم مما دفعه إلى التعلق بالقدرة والاستعانة بالخيالات والأوهام لتبرير حياته والرضى بما هو فيه من هوان هو في نظر مالرو نتيجة تفكك الروابط الاجتماعية في حياتنا الحاضرة وطغيان المادية على كل اعتبار حتى هانت القيم البشرية ، وأصبح الاستهتار بكرامة الإنسان وحياته وتضحيتهما هشيما سهلاقى سبيل المآرب الذاتية ، أمراً ما أهونه في هذا العصر الذي سماه أندريه مالرو بحق وأطلقه عنواناً لأحد كتبه الخالدة (عصر الازدراء) للمخلوق البشرى !

Temps de mepris

ما القدَر الذي نصادفه دائماً في قصص مالرو ؟ هو ذلك الملاذ الغامض الذي يلجأ إليه الإنسان حين يحس بوحشته في هذا العالم وتتوالى المظالم والنكبات عليه دون أن يعرف لها مبرراً أو تفسيراً ... فلكي ننتزع الإنسان من استعباد القدرية ونحرر شخصيته ونرد له اعتباره يجب كما يرى مالرو أن نخلق له مجتمعاً واقعياً تسوده قوانين العلم والمنطق ؛ مجتمعاً يحس فيه بوجوده ويدرك بين أحضانه أنه يعمل للمجموع ويعمل المجموع له . وهذا المجتمع لا يتحقق إلا بنظام اجتماعى تسوده العدالة والأخاء البشرى وتبرز في ظلاله قوى الفرد ونواحى نشاطه لتتسلط بقوة العقل على قوى الطبيعة الناشمة وتخضعها لخدمة الإنسان بدل أن تخضعه هى لطيشها وعتوها .

وأسلوب مالرو أسلوب حزين، عميق كتفكيره ، جامح كفنه الرائع . ذلك الفن الذي يضمه في مقدمة كتاب العصر التقدميين والذي تنبض أرجاؤه بتلك العالمية الواسعة وذلك الهم الذي يحمله فوق ظهره في سبيل الأنسانية وخيرها .

علي كامل

خواطر مسجوعة:

الصـــــديق ...

للأستاذ حامد بدر

الدمعة إن مسّتها الراحة جفّت ، والنازلة إن شورك فيها خفّت ، والطود الذي عظم ، ينقص لو قسم ؛ وكلنا هدف لنوَب الزمان ، لم يأخذ أحد لنفسه الأمان !

نشرب الكأس حلوة مَرة ، ومَرة مُرة . ومن وجدته في الضيق ، فذلك هو الصديق ، وذلك هو الكنز الثمين ، والساعد اليمين ... !

الصديق الذي يواسيك ، في مآسيك ، ويؤثرك على ذاته ، ويقيك بحياته . فإن ظفرت بذلك ، ولا إخالُك ، فاهدم حجة من قال : وجود الوفى محال !

وعندى لا صديق غير هـذا الطراز ، إلا على سبيل المجاز . فاصحب الصديق المجازىّ على عيبه وداره ، وعالجه بإقالة عثاره . وقدر الفضل لأهله وإن قل ، ولا تجحد البعض إن لم تنل الكل . وأحسن الظن بالصريح البرىء ، وتغاض كرماً عن عيب المسىء ؛ فالصاحب إن نقدته فقدته ، والعيب إن تفقدته وجدته !

أدعو إلى الصداقة ولا أنعَى ، وإن كنت طعينا منها ! صاحبت أخداناً وخلاناً ، وخصصت بالثقة فلاناً ، وتوالى الجديدان ، وطال الزمان ، وزعمت أنى ظفرت من دنياى ، بما لم يظفر به سواى ، وفاخرت بصديق الصحاب ، وجملته حديثى المستطاب . وكل همى إقامة البرهان ، على أنه صفوة الإخوان ، وأنه الذى لا يتغير عند انتياب الصروف ، ولا يتنكر بتنكر الظروف ؛ فإن قيل لا وفىّ قلت كلا ، هذا هو المستثنى بالا . ولكنه برغم أنفى أعرب ، بحجة تقطع شك الريب ، على أنه اسم معرب ، يتغير بتغير التراكيب !

(الزنكلون) حامد بدر

شهادات للإسلام
من غير المسلمين

للأستاذ محمد عبد الوهاب فايد

قال (جول مهل): العرب والرومان أقدر الشعوب في التشريع:

وقال (الأستاذ نيس): إن شريعة الحرب والأنظمة العسكرية عند الأسبانيين تأثرت كثيراً بشريعة الحرب عند المسلمين، كما تأثرت فلسفتهم بفلسفتهم وآدابهم بآدابهم.

وقال (فاندنبرغ): لقد وضع للرقيق في الإسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوي عليه الرسول وأتباعه من الشعور الإنساني النبيل، ففيها نجد من محامد الإسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التي كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعي أنها تمشي في طليعة الحضارة.

وقال (يورغا): ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء في القصور التي استولوا عليها، ويأكلون لحوم القتلى في أيام القحط، وقد أسرفوا في القسوة حتى أنهم كانوا يبقرون البطون ويبحثون في الأمعاء عن الدنانير. أما صلاح الدين فلما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين، ووفى لهم كل الوفاء بالشروط المعقودة، وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم، حتى أن الملك العادل شقيق السلطان أعتق ألف رقيق، ونودي بأن كل من يخرج من باب معين في المدينة يكون آمناً، ومنّ على جميع الأرمن، وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة، وأبيح للأميرات والملكة في مقدمتهن بزيارة أزواجهن. وكان الجنود الذين يصحبون اللواتي أمرن بالجلاء يعطفون عليهن أشد عطف ويواسونهن كل المواساة. ولا يمكن أن يظهر فضل صلاح الدين وكمال خلقه بأحسن من تهديده السفن الإيطالية حتى ترد أولئك البائسين إلى ديارهم. وكذلك كانت سيرة الملك الكامل لما أخذ بمخنق الصليبيين في واقعة دمياط فأحاط بهم النيل وهددتهم المجاعة وإليك ما وصف المسلمين به أحد الذين حضروا الواقعة من مؤرخي النصارى قائلا: هؤلاء الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وإخوتهم وأخواتهم بطرق شتى ... هؤلاء الذين سلبناهم أموالهم وأخرجناهم عراة من منازلهم، تداركونا وسدوا خلتنا وأطعمونا بعد أن أهلكنا الجوع، ومازالوا يحسنون إلينا حتى غمرونا ببرهم وإحسانهم لما كنا في ديارهم وفي قبضة أيمانهم، فلو ضاع لأحدنا عير لما أبطأ رده إلى صاحبه.

وقال الأستاذ فارس الخوري:

إن محمداً أعظم عظماء العالم، ولم يجد الدهر بعد بمثله. والدين الذي جاء به أوفى الأديان وأتمها وأكملها، وإن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الذي دعا الناس إليها باسم الله وبأنها متفقة مع العلم مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية.

إن محمداً أعظم عظماء الأرض سابقهم ولاحقهم، فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ، وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم على أسس تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها.

وقال الأستاذ أيضاً: البون شاسع بين شريعتي موسى ومحمد عليهما السلام، فالأولى: تأمر بالتقتيل بلا إنذار ولا عهد ولا صلح ولا دعوة لإيمان، فلا يقبل من الأعداء اليهود، ولا يعصمهم من القتل والفناء الإيمان، خوفاً من الارتداد فيما بعد، ولا يسمح لهم بالرحيل والجلاء عن بلادهم لتخلو لليهود الفاتحين، خوفاً من استجمام القوى والكر على الغاصبين.

والثانية: تأمر بدعوتهم إلى الإسلام، فإن قبلوا الدعوة عصموا دماءهم وأعراضهم وأموالهم، وإن أبوا فالجزية، وإن أبوا فالقتال. وهذه دعوة دينية قبل كل شيء.

وقال أيضاً: المقايسة بين الشرع الإسلامي والشرع الروماني لا نراها تستقيم لنا بالنظر لاختلاف الهدف والسنة بين الشرعين: الأول منهما قائم على قواعد العدل المطلق ومقتضيات العقول. والثاني على المصالح والمنافع الدنيوية. فيبنى على هذا التخالف أن الأساس في الشرع الإسلامي مصلحة الفرد في الدنيا والآخرة: وفي الشرع الروماني مصلحة الجماعة فقط. وهذه المبادىء ظاهرة آثارها في كل صفحة من صفحات هذين الشرعين تفرق بينهما تفريقاً يتعاصى على المزج والتوحيد، حتى إن الحكيم يكاد

يستنبط استنباطاً الحكم بالمسائل المعروضة فى كل من الشرعين إذا اعتبر بهذه القواعد ورجع إليها . وفى الأعم الأغلب يكون ظنه يقيناً ؛ مثال ذلك مرور الزمان ، إما أن يسقط الحق وإما أن يسقط الدعوى ؛ فالشرع الإسلامى لا يمكن أن يقول بسقوط الحق لأن الحق يبقى فى الذمة ، والفرد لا تبرأ ذمته إلا بالوفاء أو بالإبراء ، مهما مر من الزمان على الحق ، ولذلك قال إن الحق لا يسقط بتقادم الزمان وإنما يمنع الحاكم من سماع الدعوى . فلم يكتف الشارع الإسلامى بتأمين مصلحة الدنيا بل استهدف مصلحة الآخرة أيضاً ، فى حين أن الشارع الرومانى اتخذ الجانب الآخر وقال إن الحق المتروك يسقط والساقط لا يعود . ولم يكترث بأثقال الذمة وعقاب الآخرة . لذلك ترى أنه ليس من السلامة القول بأن أحد هذين الشرعين مأخوذ عن الآخر . وإذا طالعت أقوال فقهاء الأمتين فى إحدى المسائل تجد كل فئة تعلل اجتهادها بطريقتها الخاصة مراعية المبادىء المتقدم ذكرها ، غير متأثرة بالأساليب وطرق التعليل التى سلكتها الفئة الأخرى .

وقال الأستاذ كذلك : من أين لأمير من أمراء القرون الوسطى غير مأخوذ بالعاطفة الدينية وغير حريص على سلامة آخرته أن يجعل رائده تقوى الله فى حروبه وغزواته ، ويحرص على كل ما ينيله ثواب الخلود والمرتبة العالية فى الجنة بالتزام العدل والرحمة والبعد عما يشوب طهارة النفس وفضائل الأخلاق ؟ ذلك ما نراه شائعاً بين أمراء المسلمين وقوادهم ، وأمثلته كثيرة .

ومن أحسن ما نذكره فى هذا القبيل أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبى وقاص ومن معه من الأجناد : (ونح منازل جنودك عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم ففوا لهم). ففى هذا الأمر الصريح لا يكتفى أمير المؤمنين ابن الخطاب بالتوصية الحسنة بأهل الصلح والذمة ، بل يتجاوز فى الرفق بهم العهود المقطوعة لهم ، وفيها أنهم يضيفون عسكر المسلمين ثلاثة أيام ، أماهو فأمر بتنحية العسكر عن قراهم حتى لا يصابوا بأذى ولا معرة . وفى هذه الفقرة بيان يدلى به هذا الإمام المظيم عن ثقل وطأة الفاتحين على أهل البلاد ، ومرارة نفس الغالب فى عدم الإعتداء على مغلوبه ، فقال لقومه : إنكم ابتليتم بالوفاء بحرمة أهل الصلح وذمتهم ، كما ابتلوا أيضاً بالصبر على تغلبكم وتحكمكم بهم فى بلادهم فعليهم الصبر وعليكم الوفاء .

وقال أيضاً : فى الإسلام كثير من الأمور التى تستوقف نظر المطلع فيعجب عندها من فكرة العدل المجرد الراسخة فى نفوس زعماء العرب وحرصهم على النهج القويم والصراط المستقيم فى أفعالهم وصلاتهم مع محاربيهم ومعاهديهم ، من ذلك الأصول التى وضعت للنبذ عند جوازه ، فإذا فسخوا الصلح وأصبحوا فى حالة حرب لا يناجزون خصومهم إلا بعد إعلامهم بالفسخ ، ومضى الوقت الكافى ليخبر الملك رعاياه فى أطراف البلاد وعند تخوم المسلمين ، حتى إذا هاجمهم هؤلاء لا يكونون مأخوذين على غرة وغفلة . وهذه درجة من الإنصاف قصر عنها أهل زماننا مع ما عندهم من حقوق الدول وقواعد الحرب ، فإن دول العصر الحاضر تبدأ بالهجوم وسائر أعمال الاعتداء حالما تعلن الحرب ، دون أن تكون مجبرة على الانتظار بعد الإعلان ، حتى إن بعضها تهاجم قبل إعلان الحرب بصورة رسمية كما فعلت اليابان بالمدرعات الروسية الراسية فى ميناء سيبول فى كوريا سنة ١٩٠٤ وغير ذلك .

ومن هذا القبيل قاعدة عدم أخذ العامة بجرائر الخاصة ، وهذا مستند للآية الكريمة (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فهو عن تحميل المغارم أهل القرى بالجلة لأجل الجرائم التى يقترفها أفراد منهم . وأنت ترى أن حكومات هذا العصر تفرض الغرامات على القرى وتأخذ الطائفين فيها بجريرة العاصين . وأمامنا حوادث التقتيل والتهجير فى القرن العشرين بمرأى أوربة ومسمعها ، وإن شئت فقل برضاها ، تدلنا على أن العرب فى عنفوان دولتهم كانوا أقرب إلى العدل والإنصاف من أكثر أهل هذا الزمان .

وقد شرعوا أيضاً أن خروج الشراذم من المعاهدين واعتداءهم على بلاد المسلمين بغير إذن ملكهم لا يعد نقضاً للعهد ولا يوجب الغرم على الملك المعاهد أو على قومه بصورة عامة . وهذا مبلغ من الإنصاف جدير باحترام أرقى الصور وأعلقها بالإنسانية والعدل .

وما زالت الدول غير خاضعة لهذه القاعدة ولا عاملة بها ، فقد حملت إيطاليا الغرم دولة اليونان بسبب اعتداء بعض اليونانيين على البعثة الإيطالية فى اليابان ، وفرضت عليها غرامة خمسين مليون فرنك مع أشياء أخرى واحتلت جزيرة كورفو ضماناً لإنفاذ

هذه المطالب . وفعلت انكلترا مثل ذلك مع الحكومة المصرية فى مقتل السر لى ستاك باشا فأخذتها بجريمة بعض الشبان . وجرى فى بلاد الشام حوادث شتى من هذا القبيل فى أثناء الحرب العامة السابقة ، وبعدها فى أيام الثورة ، كما أخذت النمسا حكومة السرب بجناية اغتيال ولى العهد بيد فتى سربى ، وكان ذلك سبباً مباشراً لاضطرام الحرب الكونية (الماضية) ، وغير ذلك .

ومن المبادىء العربية العالمية اجتناب قتل النساء والأطفال ، وهذا أيضاً تقاصرت عنه المدنية الحديثة فإن وقائع الحرب العالمية وحوادث ثورة دمشق سنة ١٩٢٥ و١٩٢٦ وما لا يحصى غيرها من فواجع القتال أدلة ناطقة على أن قواعد حقوق الحرب التى تحظر على المحاربين إطلاق القنابل على الأماكن غير المحصنة لا توجد إلا فى بطون الأوراق والدفاتر .

وقال (هولتز ندورف) و (ريفى) : إنه يوجد فى الفقه الإسلامى جميع القواعد الجوهرية التى تتعلق بشريعة الحرب ، ولم تقتصر على الفتح والغنيمة بل تجاوزتها إلى فرض الضرائب وذكر المواد المحرمة على التجارة ونظائرها ، مما لا يختلف إلا اسمه عما يستعمل فى يوم الناس هذا .

وقال (غولد زيهر) : إن معاملة الفاتحين من المسلمين لأصحاب الأديان الأخرى فى هذا العهد الأول الذى وضعت فيه أسس الشرع الإسلامى كانت معاملة رفق ورحمة ، وليست الخطط التى تسير عليها الدول الإسلامية فى هذا العصر مما يقرب فى أخلاقها السياسية من التسامح إلا وهى مقتبسة من القواعد التى وضعت فى النصف الأول من القرن السابع ، ومن إطلاق الحرية لغير المسلمين من الموحدين فى القيام بفروضهم الدينية ... وكما أنهم كانوا أحراراً فى دينهم فقد كان على المسلمين أن يحاسنوهم فى شؤون دنياهم ، وعد ظلم أهل الذمة من الذنوب والكبائر .

وقال (المسيو لوران) المؤرخ الفرنسى : إن أرمينية التى سبق لها أن دخلت فى طاعة هرقل ، أحسنت بعد ذلك استقبال المسلمين للتحرر من ربقة بيزنطة ، ولتستعين بهم على مقاتلة الخزر ، فعاملهم العرب معاملة حسنة ، وتركوا لهم أوضاعهم التى ألفوها وساروا عليها .

أما الأساس الشرعى لاستقلال أرمينية المحلى ، فهو عهد أعطاه معاوية سنة ٦٥٣ إلى القائد تيودور رختونى ولجميع أبناء جنسه ، فكانت اضطهادات بيزنطة الدينية دافعاً للأرمن على الدخول فى هذا العقد على عجل والرضا بسيادة العرب الذين هم أكثر تسامحاً من الروم . وهذا الشرط الذى منح لأرمينية انتهى أمره بأن أصبح قاعدة للعلاقات بين العرب وجميع النصارى القاطنين فى الولايات الأرمينية . وقد أعطى به مساواة عهدة للأرمن ما داموا راغبين فيه ، ومن جملته ألا يأخذ منهم جزية مدة ثلاث سنين ، ثم يبذلون له بعد ذلك ما شاءوا كما عاهدوه وواثقوه ، وعليهم أن يقوموا بحاجة ١٥ ألف فارس منهم ينفق عليهم من أموال الجزية ، ولا يستدعى هؤلاء الفرسان إلى الشام ولكنه يرسلهم إلى سواها حيث يشاء ، ولا يرسل إلى معاقل أرمينية أمراء ولا قواداً ولا خيلا ولا قضاة ، وإذا أغار عليها الروم أمدها بكل ما تريده من نجدات . وهو يشهد الله على قوله .

فعلى هذا العقد أصبح الأرمن مستقلين فى بلادهم تابعين لسيادة الخليفة العليا ، على شروط ارتضوها ، فاحتفظوا بأمرائهم ورؤسائهم وأوضاعهم العسكرية وطبقاتهم الدينية ، وكان الخليفة يكتب إليهم عهوده كما يكتب إلى أمراء المسلمين ، ويلبس الأمير الجديد فى موكب حافل تاجاً وخلعة فاخرة وسيفاً ويركب فرساً ويقلد كل رسوم الأمارة وشاراتها ، ثم يستعرض الجند فى أحسن هيئاتهم وهم يرتلون الأناشيد ويعزفون بالموسيقا ، ويتلى بعد ذلك عهد الخليفة .

هذا وعلى ما كان يتمتع به أمراء الأرمن من الاستقلال ، فقد كان يشرف عليهم ويراقبهم أمير من لدن الخليفة ، وقد يكون فى الغالب عامل إحدى الولايات المجاورة .

وقال (الدكتور جب) المستشرق الإنجليزى :

لا بد للباحث عن مصير الإسلام أن يتساءل عما إذا كان من الممكن أن يحتفظ المسلمون بوحدتهم الدينية أمام هجمات العلوم الأوربية ، وتجاه الفوارق السياسية .

ولا بد له أن يفكر فيما إذا كان الإسلام عدواً للمدنية الغربية أو نصيراً لها ، وفيما إذا كان اقتباس المسلمين لهذه المدنية سيوجد بينهم فوارق فكرية تجعل منهم أمماً مختلفة الآراء والثقافة ؟

يظهر لأول وهلة أن الإجابة على هذا السؤال مستحيلة ، إلا أنه يمكن الباحث أن يتنبأ من سير الحوادث بشىء عن مستقبل الإسلام .

لاشك فى أن البلاد العربية المتجانسة كمصر والجزيرة وسورية والعراق ستلعب دوراً يكون له الشأن الأول فى مصير الإسلام.

لهذه البلاد المتجانسة ثقافة راقية تتقدم يوماً فيوماً بفضل اللغة العربية الفصحى وسهولة المواصلات، مما يساعد على توحيد الثقافة فيها توحيداً تاماً.

إن يقظة الإسلام فى مصر وفلسطين والجزيرة والعراق وسورية حقيقة لا تنكر، ولن تقف فى سبيل هذه اليقظة عقبة، خصوصاً وأن من المستحيل أن يجرى فى البلاد العربية ماجرى فى بلاد الأتراك.

العرب يتمسكون بلغتهم وأدبهم، ويتغنون بمجد الإسلام، ولم تقم فى بلادهم أية حركة وطنية إلا كانت الروح الإسلامية أساسها. فهل يفكر العرب بعدهذا بإبدال حروف لغتهم بالحروف اللاتينية، أو أن يتنحوا عن لغة القرآن التى تربطهم بالعالم الإسلامى كافة؟ هذا مستحيل، وستبقى الروح الإسلامية تسود بلادهم وتتقدم أبداً بلا كلل ولاملل، ولايطرأ عليها أى ضعف أو وهن. العرب بحاجة ماسة إلى هذه الروح لأنها أساس حياتهم القومية، ويجب على كل مسلم أن يتمسك بأهدابها إن كان للمسلمين أخلاق، ولا أظنهم إلا متمسكين بها.

ستصبح القاهرة والقدس بمرور الزمان فى الدرجة الثانية عند المسلمين بعد مكة، وسيؤمها طلاب العلم من كل قطر إسلامى؛ وستزودهم هاتان البلدتان بدعاية قوية للفكرة الشرقية يبثونها فى بلادهم، وتساعدهم على بثها الصحافة العربية التى بلغت من الرقى والتهذيب درجة سامية. أما الفوارق السياسية التى يخشى جانبها فلا تؤثر أبداً فى إسلامية الشرق العربى.

وقال مستر بلانت (فى الجزء الثانى من مذكراته) بتاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٩ كتب إلى برنارد شو يقول: أخشى أننا سنلاقى أوقاتاً عصيبة فى الهند ولكن على الهنود وعلى المصريين أيضاً أن يعملوا على تحقيق حريتهم، فليس فى وسعنا أن نطلق سراحهم من تلقاء أنفسنا ما لم يتخلصوا من بين أيدينا عنوة، ومالم تجابهنا الهزيمة ويتداعى صرح الأمبراطورية فى جهات أخرى، فيضطرنا كل ذلك إلى الخروج من تلك البلاد كما خرج الرومان من بريطانية.

محمد عبد الوهاب فايد

صحائف مطوية :

عمر بن الخطاب الأديب

للشيخ محمـــد رجب البيومى

أنصف المؤرخون عمر بن الخطاب رضى الله عنه كخليفة عظيم ، فكتبوا عنه الأسفار المتنوعة التى تبرز سياسته الفذة فى حل المعضلات وتوجيه الأمور ، ولكننا لا نجد فصلا واحداً منها تعرض إلى ما كان له رضى الله عنه من ذوق سليم فى نقد الشعر وقدم راسخة فى تفهم مراميه ، مما انتثر فى كتب الأدب عقده ، دون أن يظفر بمن يجمع نظامه فى سلك خاص . وهكذا نجد كثيراً من عظماء التاريخ قد تعددت مواهبهم ، وتشعبت نواحى عبقريتهم فكتب المؤرخون عن أبرز ناحية فى شمائلهم ، تاركين ماعداها فى ذمة النسيان والخمول !

والحق أن عمر رضى الله عنه كان واسع المحفوظ من جيد الكلام ، حتى قال محمد بن سلام الجمحى : « ما عرض لابن الخطاب أمر إلا واستشهد فيه بالشعر » ورجل يملك هذه الثروة الواسعة من القوافى ، لا بد أن يكون ذا ولوع بالمعانى الجيدة ، والأساليب الرائعة ، فهو ينظر فيما يسمعه نظرة الباحث الناقد ، ثم يحفظ ما يروقه ويعجبه ، مستشهداً به فى موضعه ، مثنياً على صاحبه بما يستحق من تقدير .

ولقد كان يقول « أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها فى حاجته ، يستعطف بها قلب الكريم ويستميل فؤاد اللئيم » ويقول أيضاً « الشعر جذل من كلام العرب تسكن به ثائرتهم ، ويطفأ غيظهم ويبلغ به القوم فى ناديهم ، ويعطى به السائل » وفى هذا ما يكشف لنا عن غرامه بالشعر والشعراء ...

وإذا كانت الطيور لا تقع إلا على أشكالها ، فإن أبا حفص قد تفرس فى أصحابه فوجد عبد الله بن عباس يروى القصائد الجيدة وينتقد ما يعرض له من أبيات فقربه واجتباه ، وكثيراً ما اختلى به الساعات الطويلة يتناشدان ويتطارحان ، قال ابن عباس « خرجنا مع ابن الخطاب فى سفر فقال : ألا تزاملون ؟ أنت يا فلان زميل فلان ، وأنت يا فلان زميل فلان ، وأنت يا ابن عباس زميلى ، وكان لى محبا ومقربا ، حتى كان كثير من الناس ينفسون على مكانتى منه فزاملته فأخذ ينشد :

وما حملت من ناقة فوق رحلها   أبر وأوفى ذمة من محمد

ثم قال : يا ابن عباس ، ألا تنشدنى لشاعر الشعراء ؟ قلت ومن شاعر الشعراء ؟ قال زهير ، فقلت لم صيرته كذلك ؟ قال : « لأنه لا يعاظل بين الكلامين ، ولا يتتبع الوحشى ، ولا يمدح أحدا بغير ما هو فيه » فعمر يفضل زهيراً على من عداه ، مبينا أوجه التفضيل ، وهذه سنة حميدة فى النقد . فلقد كان من قبل عمر من الرواة ، إذا نقدوا شعرا قالوا إنه برود يمنية تطوى وتنشر ، أو قالوا إنه سمط الدهر ، أو قالوا إنه مزاد لا يقطر منه شىء إلى آخر هذه التشبيهات المجملة التى لا تفصل حكما ولا تعلل رأياً ، فجاء عمر فى نقده بالتفصيل الواضح ، والتعليل المقبول .

وليس من الغريب أن يخالف الفاروق ما أجمع عليه كثير من أئمة النقد فى الأدب ، فيفضل زهيراً على امرئ القيس ، لأن عمر ذواقة ، يسبر الشعر بعقله فلا يعجبه منه إلا ما جاء متمشياً مع المنطق السليم ، فكان نبيل الغرض ، رائع الحكمة ، وزهير حكيم قد يزن الأشياء بميزانها الدقيق ، فلا يفحش فى غزله ، ولا يتعابث فى تصابيه ، بل يسوق الحكمة تلو الحكمة رائعة ساطعة . تجذب إليها كل مفكر حصيف . أما امرؤ القيس فمن المحال أن يرضى عنه عمر ، وجل شعره فى مغازلة الحسان ، ومعاقرة الخمور ، والاسترسال مع الصبوة إلى أبعد شوط ، وهذه أغراض لا يهش لها الحكماء من قادة الرأى وأساطين الفكر كعمر بن الخطاب .

سمع رضى الله عنه مرة قول زهير :

فإن الحق مقطعه ثلاث   يمين أو نفار أو جلاء

فأخذ يحرك رأسه فى عجب ويقول فى تبسم : « إنما أراد أن يبين أن مقطع الحقوق يمين أو حكومة أو دية كما جاء به الإسلام

ولقد كان النابغة الذبيانى يلى زهيراً فى المنزلة لدى الفاروق لأن زياداً أقرب إلى زهير منه إلى امرئ القيس ، فقد كان متئد التفكير ، شريف الغرض ؛ وإعجاب عمر به يرجع إلى ما سمعه من أبياته التى تتحد مع أبيات زهير فى المنطق والسداد « لقى عمر

ابن الخطاب وفد غطفان فقال : أى شعرائكم الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

فقالوا النابغة . قال فمن القائل :

فإنك كالليل الذى هو مدركى
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فقالوا النابغة . قال فمن القائل :

أتيتك عاريا خلقا ثيابى على وجل تظن بى الظنون

فقالوا النابغة . قال ذلك أشعر شعرائكم » .

وإذن فزهير عنده شاعر الشعراء ، أما النابغة فهو شاعر غطفان !

وطبيعى أن يكون عمر مع هذا النظر الثاقب فى الشعر قادرا على أن يلعب به كيف يشاء ، ويوجهه حيث يريد شأن الذين يتبحرون فى مادة من المواد فلا يكتفون بسردها على الوجه المعروف ، بل يذهبون فى تأويلها إلى مدى بعيد ، لا يقدر على تفهمه واستنباطه غير من فهمها فهما دقيقا ، فقد يأتى إليه البيت وهو صريح الدلالة على معنى خاص ، فيستخرج أبو حفص منه معنى آخر كما يبين مما يلى :

كان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم ، لقصة كانت لصاحبه فى تعجيل قرى الأضياف ، إلى أن هجاهم النجاشى فضجروا وسبوا به ، واستعدوا عليه عمر ، فقالوا يا أمير المؤمنين هجانا أبشع هجاء ، فقال : ما ذا قال ؟ فأنشدوه :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة
فعادى بنى العجلان رهط بن مقبل

فقال عمر : إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب ، فقالوا إنه قال :

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليت آل الخطاب كذلك ، قالوا فإنه قال :

ولا يردون الماء إلا عشية إذا ورد الوراد آخر منهل

فقال عمر : وما فى ذلك ، هذا أقل للزحام ، قالوا فإنه قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم
وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر : كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه ، قالوا فإنه قال :

وما سمى العجلان إلا لقولهم
خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كلنا عبد ، وسيد القوم خادمهم » .

فهذه أبيات كلها سب صريح ولكن عمر يتصرف فيها كما شاء له افتنانه ، ولقد كان لا يخفى عليه — وهو الباقعة الألمعى — ما تتضمنه من هجو لاذع ، ولكنه كان كما يقول صاحب العمدة : « يدرأ الحدود بالشبهات » .

ولقد كان الفاروق على علم تام بشعراء عصره يستطلع أخبارهم ويستفسر عن أحوالهم ، وربما ذكر له الشاعر فجعل يسأل عن كنيته ولقبه وأوصافه الجسمية والخلقية وكأنه يريد أن يفهم شعره على ضوء حياته ، قام مرة يصلى الصبح فوجد رجلا قصير القامة أعور متنكباً قوساً ، وبيده هراوة ، فقال له : أنت متمم ابن نويرة ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين . فقال : هكذا وصفت لى ، فأنشدنى مراثيك فى مالك أخيك فأخذ ينشده حتى وصل إلى قوله :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن نتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا على طول وصل لم نبت ليلة معاً

فقال : عمر والله هذا هو التأبين ، ولوددت أنى أحسن الشعر فأرثى أخى زيداً بمثل مارثيت به أخاك ، فقال متمم : لو أن أخى يا أمير المؤمنين مات على ما مات عليه أخوك من الإيمان مارثيته ، فقال عمر : ماعزانى أحد عن أخى بمثل ماعزانى به متمم »

ونحن لو فتشنا جميع مراثى متمم هذا ، ما وجدنا أحسن من البيتين اللذين وقف عندهما الفاروق ، وفى ذلك الدليل القوى على سلامة ذوقه ، ودقة شعوره بمعانى الكلام . ولقد جاء بعد عمر من هام بهذين البيتين من أئمة الأدب فكتبهما على قبر أخيه

على أن أبا حفص كان ينفعل انفعالا شديداً يظهر أثره فى وجهه حين يسمع شعراً يقال فى مناوأة الدعوة المحمدية فقد أسكت من أنشده شعر أمية بن الصلت فى رثاء قتلى بدر ، وكأنه يربأ بالشعر أن ينحط إلى درجة تجعله يحيد عن الحق ويميل إلى الباطل .

ولطالما توعد من يقول شعراً فى هذا الموضوع البغيض ، حتى إن كراهته لأعداء الرسالة من الشعراء ظلت كامنة فى قلبه برغم إسلامهم بعد ذلك ، فقد كان أبو شجرة بن الخنساء شاعراً مثلها وقد لحق بأهل الردة وأخذ يقول الشعر فى تحريضهم على أصحاب محمد وكان مما قاله :

فرويت رمحى من كتيبة خالد وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

ولما أخفق في تحريضه ورأى الناس يرجعون إلى الإسلام رجع إليه صاغراً ، وقبل منه ذلك أبو بكر ، وعفا عنه فيمن عفا عنهم . فلما كانت خلافة عمر ، قال : يا أمير المؤمنين أعطنى فإنى ذو حاجة . فقال عمر: من أنت؟ فلما عرفه صاح : أى عدو الله ! ألست القائل :

فرويت رُمحى من كتيبة خالد ... وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

ثم جعل يعلوه بالدرة على رأسه ، فطار عدواً إلى ناقته ، وارتحل عائداً إلى قومه من بنى سليم ، وعمر يكرر البيت في تهكم واستهزاء .

ولقد كان برغم صرامته في الحق يعطف على الشعراء المجيدين. وقصة النجاشى السابقة تؤكد لنا هذا المعنى أبلغ تأكيد ، وحسبك أن الحطيئة كان يلقى منه — على سلاطة لسانه وقبح هجوه — كل تسامح محمود ، فقد حبسه عمر رضى الله عنه حين هجا الزبرقان بن بدر فنظم عدة أبيات عاطفية يستميل بها قلبه ومنها :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ ... زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة ... فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فرق له عمر ، وأطلقه من سجنه ومنحه دراهم كثيرة على ألا يتعرض لهجو المسلمين .

ولقد شاع في الناس حبه للشعر وتأثره به أيما تأثر فعمد كثير من أصحاب الحاجات إلى عرض مطالبهم عليه في أسلوب شعرى فكان يردهم أحسن رد ، قال عثمان بن أبى العاص : كنت عند عمر فأتاه شيخ كبير يسمى أمية بن حرثان فأنشده

لمن شيخان قد نشدا كلابا ... كتاب الله لو قبل الكتابا
أناديه فيعرض في إباء ... فلا وأبى كلاب ما أصابا
فإنك وابتغاء الأجر بعدى ... كباغى الماء يتبع السرابا
تركت أباك مرعشة يداه ... وأمك لا تطيق لها شرابا
إذا غنت حمامة بطن وج ... على بيضاتها ذكرت كلابا

فقال عمر: م ذاك يا أخا العرب ؟ فقال : هاجر كلاب إلى الشام في جيش الحرب ، وترك أبوين كبيرين ولا من عائل لهما : فبكى عمر حتى ما تتبين كلامه ثم كتب إلى يزيد بن أبى سفيان في أن يرحله ، فقدم عليه ، فقال عمر: بر أبويك إلى أن يموتا ؟

وكان لا يطوف في شارع أو زقاق ويسمع شعراً ينشد إلا وقف يتسمعه حتى ينقطع الصوت ، وله في ذلك غرائب عجيبة ، سمع أعرابية تنشد :

فمنهن من تسقى بعذب مبرد ... نقاخ فتلكم عند ذلك قرت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن ... أجاج ولولا خشية الله فرت

فعلم ما تريد ، وبعث إلى زوجها فوجده متغير الفم ، فخيره بين خمسمائة درهم أو جارية من الفىء ، على أن يطلق زوجته ، فاختار الدراهم وطلقها ، وهذان البيتان لا يدرك مرماهما غير من له بصيرة عمر وذكاؤه ، ولو سمعهما غيره لظنهما شعراً ينشد وكفى ولكن عمر الدقيق يصل إلى المراد بألمعيته المتوقدة .

وطاف ذات ليلة ببعض خيام المدينة فسمع أعرابية تنشد

تطاول هذا الليل تسرى كواكبه ... وأرقنى أن لا خليل ألاعبه
فوالله لولا الله لا شيء غيره ... لزلزل من هذا السرير جوانبه
وبت ألاهى غير بدع ملمن ... لطيف الحشا لا يجتويه مصاحبه
يلاعبنى طورا وطورا كأنما ... بدا قمر في ظلمة الليل حاجبه
يسر به من كان يلهو بقربه ... يعاتبنى في حبه وأعاتبه

فسأل عنها فقيل إن زوجها غائب في جيش القتال من عام ، فذهب إلى زوجته وسألها كم تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : مائة وعشرين ليلة ، فأمر أن يمكث المتزوج أربعة أشهر ويستبدل به غيره . ولو أردنا أن نستقصى ما ورد عن عمر من هذا القبيل لطال بنا حبل الكلام .

على أن ذوق الأديب يظهر واضحاً في قوله ، وكذلك ذوق عمر ، فقد كانت عبارته ممتعة ، ورده بارعا ، مر يوم بمنزل أنيق فقال : لمن هذا ؟ فقيل لعاملك فلان ، فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها . وتنازع عبد الله وعاصم ابناه ، فسألاه أيهما أفضل من أخيه ، فقال أنتما كحمارى العبادى ، قيل له أى حماريك شر ؟ فقال هذا ثم هذا ! وقال : الكوفة جمجمة العرب ، وكنز الأمصار ، ورمح الله في الأرض » وكتب الأدب مملوءة بلآلىء عمر الفريدة فليقتنصها من شاء . .

رحم الله الفاروق ، فلقد كان فذا في سياسته ، فذا في أخلاقه فذا في أدبه ونقده ، ولله ما أصدق الحطيئة حين قال فيه :

ما آثروك بها إذ قدموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بك الإثر

محمد رجب البيومى

هلال المحرم

[بين مولد عام ، ومأتم عام يجد الشاعر مجالا للتأمل]

للأستاذ طاهر محمد أبو فاشا

عاد بعد النَّوى وألقى الرحالا   صامتٌ قام يخطبُ الأجيالا
وشهيدٌ على الزمان قديمٌ   كالزمان القديمَ يأبى الزوالا !
وكأن الظلام حَولَ معانيـ   ـه غُبارُ الدهور مرّت ثِقالا
والزمان العجوز .. داهِية يَرْ   تجلُ الموتَ والحياةَ ارتجالا .!
والزمان العنيدُ .. أحمق يَرْتا   دُ المنايا ، ويركب الأهوالا !
. والزمان العجيب أسطورة يَنْـ   ـسِجها الوهم للوجود خيالا .

صامت قام يخطب الأجيالا   وَدَّ لو تَرْجمَ الضياء مقالا
وبواكيرُ مِنْ سناه تهادَى   كتباشيرَ من رجاء تَلالا
خطَّه الغيبُ فى السماوات سطراً   وَهِمَ الناس إذ دَعَوْهُ هلالا
هو همس فى خاطر الكون مشبو   بٌ يقصُّ التاريخَ والأبطالا
هو فنٌّ على السماء ، ومعنًى   كالمعانى ، وهجرة تتوالى
هو شىء غيرُ الأهاليل ، يُوفى   كل عام فيـــه يوقظ الآمالا
خنجرٌ فى يد المحرَّم مَسلو   لٌ على عالم يضج خبـــالا
قد لواه الطِّعانُ فى لجبِ الدَّهْـ   ـرِ .. وعنف الطعان يَلوى النصالا

هيه يا أولَ الطريق من العا   م : يميناً فنهتدى .. أم شمالا ؟! .
أى شىء صوَّرْتَهُ حين صوَّرْ   تَ من النورِ جابةً وسؤالا ؟
أتُرانا على الطريق أم انْبَتَّـ   ـت بنا السُّبْلُ وانتحرنا جدالا ؟
وخرجنا إلى الحياةِ مَشاكيـ   ـلَ نجيدُ النُّواحَ ، والإعوالا
وقنعنا من المعاركِ بالوَصْـ   ـفِ ، وخُضنا غِمارَها أقوالا
ونَصَبْنا لكلِّ ساعٍ شراكا   وملأْنا طريقــه أوحالا
واحتمينا من الحقائق بالجهْـ   ـلِ ، وسرنا وراءه أشكالا
الذى صار عند قوم حراماً   كان فى يومه القريب حلالا !
ضَلةٌ لِلَّجاج يختل قومى   ويريهم أقوالهم أعمالا .
ياهلالا فى طلعة العام أَلْهُو   باً يَسوقُ الأيام وهى كُسالى
هات من ذكريات يومك يوماً   يَقْرَعِ الغافلين ، والجهالا
وأعِدْ قصة الخلود على العا   لم ، واضْرِبْ فصولَها أمثالا
هى ميراثُ أمة غالَها الخُلْـ   ـفُ وصاغت من جهلها أغلالا
قصةٌ تَرسُمُ البطولة فى أحْـ   ـداثها العزم صارماً والنضالا
قصةُ الرأى حين تجحده الأر   ضُ عناداً من حمقها ، أو ضلالا
قصةٌ تُلْهِمُ التأمل مَسرا   دُ ، وتُضْفِى على الوجود جلالا
ما نظمت التاريخ فيها : ولكـ   ـنى ضربت التاريخَ فيها مثالا

من ديوان عالمِىَ الصغير ..

للأستـــاذ العوضى الوكيل

١ — حديقة

أقمتُ ببيتٍ ماله من حـديقة
يطوِّف «ممدوح» بها «ودسوقى»(١)
وقد يُرويان الزرع ربِّى سناهما   بشعر كأفياء الخيالِ رقيق
وقد يقطفان الزهر بعد نموه   ويرنو شقيق منهما لشقيق
وقد يخطران الصبحَ فيها بعشية   تسدُّ إلى هم الحياة طريق !
وقد يجعلان العشب فيها مقاعداً   تباكرها أيدى الندى برحيق

وليدىَّ يسرى فى عروق هوا كما   فتخفق بالحب الطهور عروق
وفى مهجتى روض من الحب ناضر
نأى عن رعود للحيا وبُروق
تهب عليه نسمة من هوا كما   فتخفق فى الأكمامِ أىّ خفوق
فإن تقطفا أزهاره فقصائد
كلجة «ممدوح» وصوت «دسوق»

٢ — ممدوح والحب

ممـدوح مالك تهوى   من البنات ، الحسانا
تهفو إلى قبـــلات   منهنّ آنا فآنا
وإن أتيحَ عناق   غنمته نشـــوانا
إنى عهدتك تهوى الـ   ـتفاحَ والرمانـــا
وقـد عرفتك تستمـ   ـلِحُ القدود اللدانا
ترِق فى القول حتى   ترى حبيبـك لانا
هيهات تسلو الغوانى   وإن لقيتَ هوانا

احذر بنىّ فإن الـ   ـغرامَ داء عُضالُ
الغيد تفلت منـــه   ويصطليه الرجالُ
فما لهنّ قلوب   لكن لهنّ حِبالُ

(١) ممدوح ودسوقى ابنا صاحب الديوان .

صداح النيـــل

[مهداة إلى صاحب السعادة الأستاذ عزيز أباظة باشا ، لمناسبة عودته من مصيفه بلبنان]

للأســـتاذ (ابن محمود)

على النيل صداح الأغاريد ساحر ... لعذب أغانيه تحن المزاهر
له فى ظلال الأيك عش منغم ... موارده مخضلة والمصادر
يظلـــل به ما بين غاد ورائح ... تماسيه أطياف المنى وتباكر
إذا ما تغنى ردد الطير شدوه ... ومالت بأنسام الأصيل الأزاهر
وهدأت الأمواج فى النهر جريها ... يجاذبها من لذة الصوت آسر
ورجعت الشطئان أصداء لحنه ... ففى كل شط قينة ومزامر
أشاعر وادى النيل هل أنت سامعى
وهل أنت للشادى المقصر عاذر ؟
أعدت إلى ملك القريض مكانه ... فعاد وعدنا بالقريض نفاخر
مضت فترة من بعد شوقى كأنها ... على الشعر ليل مظلم الأفق عاكر
تعاجم فيها بالنظيم جماعـــة ... وأنحن فيها بالجراح معاشر
يقولون بالتجديد ، ضعف قريحة ... وعجمة أسلوب ، به العى ظاهر
وعندهم التجديد شكوى وآهة ... وبرح هوى فيه التخنث سافر
فـكلهمو فى الشعر مجنون عامر ... ولو عاصروه طلق الشعر عامر

أمير القوافى جئت لبنان زائرا
فهل حل فى لبنان مثلك زائر ؟
كأنى بتلك الشامخات تحركت ... للقياك ترحيبا وراحت تسائر
وبالأرز قـد مالت عليك غصونه
كما انسدلت خوف الحرور الستائر
ويارب سفح كالبساط منضر ... مشيت عليه وهو بالوشى زاهر
يخصك بالإعجاب حيث تخصه ... فما أنتما إلا فؤاد وناظر
يقول أهـذا قيس لبنى بعينه ... ولُبناه ؟ أم حلم على الأرز عابر
فياسعد لبنان ، تملأ قلبه ... بقربكما منه وقرت نواظر
رأى الحسب الوضاح يسطع نجمه
مع النسب العالى ، فنعم الأواصر

عزيز ! كتمت الحب ، لكن هاتفا
من القلب نادانى فرحت أجاهر
وما أنا والمدح الذى إن أردته ... نهانى علمى أن باعى قاصر
أنابغة الأشعار هل أنت سامع
لشعرى ؟ وهل صدقت أنى شاعر ؟

أنغـــام وأسرار

للشاعر إبراهيم محمد نجا

لمن هذه القطعة الساحره ... توقعها روحك الشاعره ؟
وكيف جرت فوق هذا البيان ... أنا ملك الحلوة الناضره ؟
وما كنت أعلم يا فتنتى ... بأنك مفتنـــة قادره
تُصـــور بالنغم العبقرى ... كما ترسم الريشة الماهره !
كأنى أرى مخدعاً للغرام ... تقـوم به غادة ســـاهره
مدلهة أسلمت نفسها ... لنشوة إحساسها الغامره
تعانق أطياف معشوقها ... وتلثم أصـــداءه الطائره
تضم يديها إلى صدرها ... كقديســـة برة طاهره
وتهتف فى وَلَه ضارع ... وفى لهفة بالجوى زاخره :
ظمئت إلى الحب يا ساحرى ... فأين إذن خمرك الثائره ؟
وصرت كريحانة تشتكى ... بصحرائها وقدة الهاجره
فأنزل عليهـا نداك الرطيب ... وأطلع لها شمسك الباكره

على وجنتيك شعاع يرف ... وفى مقلتيك رؤى باهره
وثغرك يبسم فى رقـــة ... ولكنها رقـــة آسره !
وصدرك يهتز مثل الغدير ... تداعبه النســـمة العابره
وروحك تسبح مثل الفراش ... ترفرف فى الليـــلة الناثره
ويغمرنى منك سحر عجيب ... به دفء أنفاسك العاطره
وعينـــاك تخترقان الأثير ... إلى جنـــة بالهوى زاهره
أراك بها جد مسحورة ... فيالك مسحورة ساحره !

لقد ذاع سرك يا فتنتى ... أذاعته أنغامك الثـــائره
فلا تحزنى إن سر الهوى ... أذاعته أشـــعارى الحائره
هو الفن يُظهر ما فى الضمير ... ويترك أسرارنا ســـافره !

الجامعة في النضال

من أجل التقدم الاجتماعي

للأستاذ جوستافو كولونيتي

مدير المجلس القومي للأبحاث العلمية في روما

[مهدى إلى القائمين على جامعتي فؤاد وفاروق]

إن الذين يشاهدون بقلق وضع أوربا المحزن ، ويتتبعون باهتمام الجهود المضنية التي تبذلها في سبيل تجديد إنشائها وتعميرها ، ليتساءلون أحياناً عما ينقص القارة في هذه الآونة .

وأعتقد أنه ينبغي أن نجيب دون تردد أن أهم ما تحتاج إليه أغلب أقطارنا ، إنما هو نخبة جديدة من الرجال يكون بمقدورها قيادة بلادها نحو المستقبل وفي المستقبل .

والواقع أن الطبقة الحاكمة لما قبل الحرب قد أفلست ، فقد حسبت أنها قد لبت حاجة المرء إلى الحرية ضمن نطاق الاقتصاد الحر ، ولكن هذا الاقتصاد أدى إلى مساوئ الرأسمالية الأكثر أنانية والأكثر ضلالة . وقد ظنت أنها قد لبت حاجة الجميع إلى النظام والعدالة ، ولكن ذلك لم يحصل إلا عن طريق دفاع لا هوادة فيه عن الحقوق المزعومة للطبقات المتمتعة بالامتيازات الأمر الذي أدى بصورة مذهبية إلى إعاقة التطور الطبيعي للنظام الاجتماعي نحو توزيع أعدل لخيرات الأرض . وقد خيل إليها أنها قد لبت الحاجة إلى التقدم باستخدام العلم والرقي الفني كأدوات للقوة والجبروت ، ولكن ظهر في الوقت المناسب أن العلم والرقي الفني صالحان لزرع الخراب والموت فحسب

ويبدو الآن هذا الإفلاس جلياً في ضمير جميع الشعوب ، وأن اللامبالاة التي استسلمت بها الشعوب إلى الطغاة (الدكتاتوريين) ، والتردد الخطر الذي تظهره هذه الشعوب في محاولاتها تحقيق الرجوع إلى الأشكال الديمقراطية . كل ذلك يعطينا مقياساً عن فقدانها المطلق للثقة في حكامها السابقين ، وعن حاجتها الماسة إلى رجال جدد . ومن واجب الجامعة تهيئة هؤلاء الرجال وتكوين النخبة الصالحة منهم .

ومن ذلك تبدو لنا المسئولية التي تقع على عاتق الجامعة لأنها لم تعرف في الماضي كيف تخرج لنا رجالا قادرين على المعرفة والتنبؤ وتدبير الأمور . ونستنتج من ذلك ضرورة تجديد كيان الجامعة وتحملها للمهمة الثقيلة وهي قيادة الإنسانية نحو نظام جديد

وهي في الحقيقة مهمة ثقيلة الأعباء مفعمة بالمصاعب ، ملآى بكل مجهول ، إذ لا يعني ذلك إعادة إنشاء ما أصابه التدمير مادياً فحسب ، بل اجتناب الحكم بالتدمير من جديد وبأقرب وقت على ما سنشرع ببنائه . ومن السهل علينا تمييز أسباب الحرب ومسئولياتها ، ولكن لو ذهبنا في تعمق الأشياء إلى أبعد من ذلك ، لرأينا وجوب التسليم بأن الحرب ما كانت إلا المظهر الخارجي الفاجع لاستحالة استمرار الإنسانية على العيش في ظروف مادية وعلاقات متبادلة ، ثبت أن العالم قد تخطى العصر الذي وجدت فيه

ولقد تميزت معالم هذا التخطي عن طريق التقدم العلمي والرقي الفني ، هذا التقدم الذي وضع تحت تصرف الإنسانية كمية في تضخم مستمر من الثروة لا تستفيد منها إلا بعض الطبقات الاجتماعية

ولكن هذا الحادث لا يزال في دور التخطيط ؛ فالتقدم العلمي والرقي الفني سيستمران في النمو بشكل يزداد على الدوام سرعة ووزناً في النتائج في كافة النواحي

ويوشك أن ينهار بنياننا الاجتماعي الذي لم يستطع مقاومة الغزوات الفنية للنصف الأول من هذا القرن ، وستقل مقاومته لصدمة الغزوات الفنية التي ستطبع بلا ريب السنوات القادمة .

ولقد أضحى التقسيم الحالي للبشرية إلى طبقات بالياً ومحكوماً عليه بالزوال وستلغيه فجأة ثورة دامية لا مثيل لها في التاريخ ، إذا لم نعرف منذ الآن كيف نتغلب عليها بإيجاد نظام جديد تتاح فيه للناس دون ما تمييز في الطبقات نفس الظروف للتمتع بالخيرات التي وضعها التقدم العلمي والرقي الفني تحت تصرفنا بمقياس واسع وبشكل دائم الاستمرار

فإيجاد هذا النظام الجديد ، وصياغته بشكل يتفق واطراد الرقي الفني إلى حد لا يستطاع تحويله كما جرى غالباً في الماضي إلى أدوات اضطهاد في يد فئة قليلة من أصحاب الامتيازات توجهها نحو كتل بشرية محرومة من وسائل الدفاع فاقدة الأمل والاعتراف لجميع البشر ، بحق الاقتسام العادل لخيرات الأرض وإمكانية

مساهمتهم فى التقدم المشترك والتمتع به بصورة مشتركة . هذه هى مهمة الغد العظمى النبيلة الشاقة التى لا تقبل أى تأجيل أو تسويف

وإليكم فى الوقت ذاته تحديداً للصورة الجديدة لجامعة الغد : على جامعة الغد أن تكون أول من يبادر إلى تحقيق زوال التفاوت الطبقى ، وذلك بأن تتقبل فى أحضانها كل شاب يتصف بالذكاء وحسن النية ، مهما كانت ظروف أسرته الاقتصادية والاجتماعية ومهما كانت موارده محدودة

ولقد أضحى هذا الاقتراح منذ مدة مكاناً شائعاً ، فنعثر عليه فى برامج مختلف الأحزاب السياسية فى كافة الأقطار ، ولكن علينا ألا نحسب أنه نتيجة مكتسبة ومسلم بها ، فهو على النقيض من ذلك ، نصر لا يمكن إحرازه إلا مقابل أعنف المعارك وأهولها

وفى الحقيقة إن أغلب أولئك الذين يسلمون نظرياً فى كثير من السهولة برأينا لا يقصدون سوى ازدياد قل أو كثر لكراسى الدراسة المجانية التى كان يحسب فيها مغنى إمكان حل المشكلة عن طريقها

بيد أن هذه الكراسى المجانية قد أتاحت لعدد من هؤلاء الشباب الخروج بل الهرب من الطبقة العاملة ليأخذوا أمكنتهم بين الطبقة البرجوازية أو الطبقة الحاكمة

وإذا كان من العدل أن نعترف بحسن نية أولئك الذين أسسوا هذه الكراسى الدراسية رغبة منهم فى مساعدة أفضل أبناء الشعب على ارتياد مناهل العلم والتربية ، فينبغى التسليم أيضاً بأن هذه المؤسسات قد ساعدت على تمتين معالم هذا التسابق نحو إحراز شهادة تعتبر كوسيلة وحيدة لبلوغ أعلى الدرجات فى السلم الاجتماعى ، هذا التسابق الذى أفسد بصورة خطرة كل حياتنا الجامعية

فالإكثار من الكراسى الدراسية المجانية يبقى المشكلة الاجتماعية على حالها دون أن يحمل إليها حلا ، إذ ليس القصد توسيع أبواب الدخول إلى الجامعات ، بل انتخاب أولئك الذين يدعون لدخولها وانتخابهم بشكل أوسع وفى محيط اجتماعى أرحب . وهدفنا من ذلك منح إمكانيات أعلى مراتب الثقافة لكل الذين يحوزون من المواهب الفكرية ما يسمح لهم ببلوغها ولهؤلاء فقط

والغرض من ذلك فى الوقت ذاته حمل الرأى العام على تقدير كل شكل آخر من أشكال النشاط المنتج الذى لا تقل حاجة المجتمع إليه عن حاجتها إلى العلماء وتوجيه جميع الذين يعتقدون الآن بأن لهم الحق فى الدراسة لا لشىء إلا لكونهم ينتسبون إلى الطبقات المتمتعة بالامتيازات فيجعلون الجامعات مزدحمة بهم ، ليصبحوا فى المستقبل من المتخلفين عن مراتبهم Déclassés ، لا فائدة فيهم لأنفسهم ولا للآخرين ، توجيه هؤلاء نحو هذه الأشكال الأخرى وإعدادهم لها بصورة تدريجية

ولا يمكن بلوغ هذه النتيجة إلا بقلب الوضع الحالى رأساً على عقب ، وهو قلب لا تستطيع تحقيقه إلا الدولة ، وذلك بإدخال الدراسات العليا ضمن نطاق الوظائف الاجتماعية واعتبار النفقات التى تتطلبها بين تلك التى على المجتمع أن يحتمل أعباءها فى سبيل المصلحة العامة

وفى هذا المعنى ينبغى الاعتراف بأن قطراً واحداً قد اقتحم المشكلة بكل اتساعها إلى الآن ، ألا وهو الاتحاد السوفياتى

ولقد كانت التقاليد فى الأقطار الغربية حائلا دون أى تجديد . وسنرى عما قريب ما إذا كانت هذه التقاليد التى نعتز بها بحق ، ستعرف أن تكون نقطة الانطلاق لنظام جديد يتلاءم فيه الماضى المجيد مع مقتضيات الوضع الجديد

وليس من شك فى أننا سننجح بهذا الثمن فقط فى الإبقاء على مركزنا على رأس الحركة نحو التقدم الاجتماعى وفى إنقاذ ما تبقى من حضارتنا

وينبغى أن تتجدد الجامعة لا فى انتخاب الطلاب فحسب ، بل فى جهازها الداخلى أيضاً ، وذلك لسببين اثنين يجب التسليم بهما:

أولا : لأنها لم تكافح الفاشية دائماً عند ما كان ثمة فسحة فى الوقت لمكافحتها فى المجال المذهبى terrain Doctrinal كمبدأ لا يتلاءم مع أى شكل من أشكال الحياة الفكرية والبحث الحر عن الحقيقة

ثانياً: لأنها بالغت فى تناسى دورها فى تكوين العقول وخلق معنى مسئولية الفكر تجاه الوقائع والتاريخ

لقد كونت الجامعة أساتذة فلقنتهم أغمض أسرار الرقى الفنى وفتحت أمامهم مسالك العلم السرية ، ولكنها أغفلت توجيه

انتباههم نحو الخير والشر للذين كان في مقدور العلم والرقى الفنى دفعهما إلى البشر ، وإفهامهم أنهم مسئولون إلى حد ما عن هذا الخير والشر . ولقد أهملت إفهامهم أيضاً أنه ليس من حقهم التجرد وعدم المبالاة بالروابط التى تربط دراساتهم بحياة البشرية ، وتراخت عن تلقينهم أن جهودهم لا تكون نبيلة ولها ما يبررها إلا إذا كانت تتوخى عيشة أفضل للانسانية جمعاء .

فعلى الجامعة إذن أن تستعيد السيادة على نفسها . عليها أن تضع حداً للتخصص المفرط وتوسع نطاق التعليم الفنى . وعليها أن تبذل عنايتها ، لا فى تخريج علماء وفنيين فحسب ، بل فى تكوين رجال بأوسع معانى الكلمة وأجدرها بالفهم والإنسانية ، رجال لا يبحثون إلا عن الحقيقة ، ويعرفون أنه لا يمكن بلوغها إلا فى جو من الحرية

وسيتخذ النضال ضد الفاشية مكانه ضمن نطاق الحياة الجامعية فوراً وبصورة طبيعية ، لأن الفاشية إذا كانت قد انهزمت عسكرياً فتوارت عن المسرح السياسى مؤقتاً ، فإنها لا تزال تعيش بين ظهرانينا بشكلها المزدوج وهو الكذب وروح الشدة والاقتسار ، فينبغى الاستمرار فى مكافحتها تحت هذا الشكل المزدوج .

أما الجامعة ، فهى المكان الذى يعارض فيه الكذب بالبحث الأمين المجرد عن الحقيقة . الجامعة هى المكان الذى يمكن فيه إلحاق الهزيمة بروح الشدة والاقتسار عن طريق هذه الحرية التى يطالب بها الفكر بإلحاح كأعظم النعم الإلهية .

فعلينا إذن أن نعيد فى الجامعة ، إلى الحقيقة والحرية ، الإجلال والقدسية ، وذلك بأن نقضى عنهما كل من قاد زمامهما بالاستسلام إلى الخداع والتهديد أو التضليل

يجب المطالبة والظفر بإكبار الحقيقة وتمجيدها وحتى إعلانها فى الجامعة ولا سيما حين لا تروق فى عيون ذوى السلطان فى الأرض .

يجب أن تكون الجامعة حصناً للحرية ، وعلينا أن نطالب وأن نظفر بعدم التنكر لها فى الجامعة ، وينبغى ألا نضن بالحرية إلا على أولئك الذين يرغبون فى استخدامها من أجل قتلها

وعندئذ تمسى الجامعة هيئة يصبح أعضاؤها ويشعرون شخصياً أساتذة وطلاباً أنهم مسئولون عن الشكل الذى يؤدون به رسالتهم الاجتماعية ، وسيصبحون ويشعرون أنهم أعضاء نخبة ممتازة مدعوة إلى قيادة العالم نحو مصير أفضل، نخبة ممتازة لا تباعد فيما بين أفرادها الحدود السياسية ، وسيكون هذا أولى الصور لهذا المجتمع الدولى الذى سيجنب وحده أوربا كوارث جديدة

وسيكون فى وسع البشر أن يصبحوا أخيراً ، فى عالم حر مغرم بالحرية ، سادة مصائرهم ، وسيكيف التقدم العلمى والرقى الفنى عن ترويعنا ، ويستخدمان عندئذ لجعل الحياة أقل خشونة وجفافاً وأجدر بأن نعيشها .

ترجمة

[عن مجلة L' université] **غالب عارف طوقان**

من يد ذات ســـوار إلى يد ذات سوار ...

لى — ياسيدتى — يدٌ ذات سوار كيدك ، وأناملُ ناعمة نعومةَ أناملك ، ونفسٌ مرهفٌ حِسُّها إرهافَ حسك . فأما يدى فأصدقُ سمعها أن تصول فى عالم الكتابة وتجول ؛ وأما أناملى فأحبُّ ملمسها أوتارُ قيثارة خالدة توقّع عليها ألحان البيان الرفيع ؛ وأما نفسى فغاية مُتمناها أن تصور مايجيش فى أحنائها تصويراً واضح الفكرة قوى الحبكة رائع الأسلوب ، يبوِّئها فى ميدان الأدب مكاناً عليًّا ترنو اليه الأبصار فتهوى اليه القلوب ..

وانى — بلا ريب — لم أبعث إلى « الرسالة الغراء » بمقالى هذا لأفتح لك نفسى فتفتحى لى نفسك ، فان لنا فى أرجاء المجتمع الوسيع لَغَناءً عن التعارف على صفحات مجلة حملت — وما انفكت تحمل — مشعل الأدب العربى الصميم ، وسمحت وما برحت تسمح للاقلام الرقيقة الأنيقة ، أقلامنا معشر ذوات الأساور ، أن تقوى وتشتد لنكتب فى بعض أبوابها فصولا من معتصرات أدمغتنا ، بها ندافع عن كرامتنا ان خدشت ، وعن شعورنا ان جرح ، وبها نقيم دعائم نهضتنا حين تنقض فرقا من صواعق الرجعيين الجامدين ، أو هلعا من زلازل المجدِّدين المتطرفين ! .

جميلٌ منك — ياسيدتى — أن تثيرك مقالات الأستاذ « الطنطاوى » الأخيرة فتبعثك على الطمع فى المثول بين يديه مثول التلميذ بين يدى معلمه .

وجميل من « الرسالة » أن ترضى ما صبت اليـه نفسك ، فتنشر ماجادت به يراعتك ، ليشهد فيه « صاحب المناظرة الهادئة » صورة صادقة التعبير عن الأدب النسائى المتزن بفكره الثاقب ونظره البعيد .

وانه لجميل جدا من الأستاذ « الزيات » صاحب هذه المجلة الغراء أن يتقع غلتى فينشر كلمتى ، ويسمح لى بايضاح فكرتى ، على عجز قلمى وضعف مُنتى ...

غير أنى لا أطمع — ياسيدتى — فى شرف طمعت فيـه : فلانٌ أبقى طيلة حياتى فى صومعة النسيان أكتب لنفسى فلا يحس بى قريب أو بعيد — أحبُّ إلىَّ من أن تكون لى « دالة خفيفة » أو ثقيلة ، « مشفوعة بالأدب والطواعية » أو غير مشفوعة ، على عَلم من أعلام الأدب العربى لا أستبعد أن يرى بعينيه النقادتين الحادتين من الضعف فيما أكتب اليه خاصة مالا يراه فيما أكتب إلى الآخرين ، فيحاسبنى فى حاضره حسابا عسيرا على مستقبلى : وإذا نفخة واحدة من نفخات قلمه العاصف — وهو يهتز تأثراً — تذهب بجميع مايستوقده أدبى الناشىء من نار ، وما يحاول أن يرمى به من شرر ، فلا ألقى بعد إلا يأسا فى قرارة النفس عميقاً ، وزهادة بين الضلوع موغلة ، وأستوحش شيئاً فشيئاً من الأدب والأدباء ، ومن الكتابة والكاتبين .

لا . لست متشائمة يا صديقتى . . ولا والله ما أحب أن تتشاءمى من حديثى هذا اليك ؛ فانى لأعلم أنك — بعد أن تقدمت إلى الأستاذ الطنطاوى بمقالك الجرىء الذى أحسنت سبكه وأحكمت ربطه ، وعرفت بأى لطف وظرف وكياسة تعرضينه — لن تراعى إذا ماجلجلت مقالات الاستاذ من جديد ، فانها إذا خطفت برقها بصرك ، أو أصمت رعدها سمعك ، لن تزيد فى زلزالها عما تعودت من قوتها وتهدارها ، ولن يهولك فيها إذاً آتيها بعد الذى مضى ، ولا مُقبلها بعد الذى خلا ...

ولكن ...

إن يكن فى وسع سيدتى أن تصبر على حملات « الطنطاوى » بعد أن تثيره ، فليس فى وسعى ولا أحب أن يكون فى وسعى أن أصبر على حملة من حملاته من غير أن تخضلَّ عيناى بدموع من الاخلاص سواكب ، لأنى آمنت بأنه لايحمل إلا إذا كان على حق ، وأيقنت بأن الحدة لاتخرج دقاقة من بين ثنايا مقالاته إلا إذا آلمه الشىء النكر ؛ وأنى لمثلى — وهى التى يوشك أن يجرفها التيار كما جرف الكثيرات من قبل — أن تصبر على جراح قلم سِلْم للحق ، حرب على النكر ؛ يجاهد فى سبيل الله ولا يخاف لومة لائم !

إنى — على إعجابى بما جاء فى مقالك ياصديقتى — لمقتنعة بسداد الأستاذ فى موضوعه (مناظرة هادئة) وما سبقه من الموضوعات فى معناه : إذ مهما يكن الرجل قواما على المرأة ، ومهما يكن حاملا من أوزارها ، فلتقمنَّ على عاتقها تبعات كثيرة ، ومسئوليات

جسيمة ، ولاسيما إذا كانت مثقفة ، عالمة بأوضاع الحياة المختلفة وإذاً لا غرابة إذا أرسل الأستاذ « الطنطاوي » شواظاً من نار كلماته الغضبى على سواد المتعلمات اللائى أهملن رسالاتهن بعد عرفانها ، ونقضن مواثيقهن بعد توكيدها ، فاستحققن من « الطنطاوي » وغيره أن يصفهن بالجمادات الخرساء ولو حملن أعلى الشهادات من بكالوريا ودبلوم وليسانس وماجستير .

لا غرابة في هذا كله ..

ولا غرابة في أن يناظر الأستاذ أولئك المتعلمات مناظرة (هادئة) رفقاً منه بالقوارير ، وحنانا منه لدنه على لابسات الحرير ..

ولكن الغرابة حقاً في أن تثورى لنا من دوننا جميعاً معشر صاحبات « نون النسوة » فتدافعى عن عدد قليل من المتعلمات تصفينه بالجم الغفير ، وتبرزين من سداد رأيه واستقلال فكره وبعد نظره الشيء الكثير ، حتى لكأنى بك تحسبين أن الطنطاوي جاهل أو متجاهل ذلك العدد القليل الذي غاليت في تعداده ، أو أنه كتب مقالاته من قبل أن يدرس نفسيته وأطواره .

عفواً يا أختاه ! .

لقد قلبت الآية فجعلت الكثير قليلا ، والقليل كثيراً .

ألا إن أكثر المتعلمات حظا من الحيوية والنشاط واستقامة المبدأ لأقلهن عدداً . وإن أقل المتعلمات خلاقا من الخير والفضيلة وحسن الاتجاه لأكثرهن سواداً .

ولئن عرفت جماً غفيراً من صديقاتك المتعلمات اللائى يعجبن السامعين بحوارهن ونقاشهن فإن أخوف ما أخافه أن يكون حماسك لنا — نحن بنات جنسك — قد بعثك على المغالاة في نثر المديح ، فإني عرفت مثلك جماً غفيراً من السيدات والفتيات المتعلمات ، لكني أبيت أن أتخذهن صديقات إلا مارحم ربى ، إذ ألفيتهن إلا قليلا منهن — على كثرة مافى رؤوسهن من المعلومات — يرددن ما يحفظن ترديد الببغاء .

وما أحسبك تنكرين الصلة الوثيقة بين العلم والدين ، وبين الثقافة والفضيلة ، وأنك حين تشايعين الأستاذ على مايقوله في فتاة العصر من ناحية الدين — والدين كما تعلمين ينبوع الفضائل — فقد شايعتيه على كل ما يلوم عليه أكثر فتيات هذا العصر ، لأن علومهن وفنونهن وآدابهن لا تؤتى أكلها المطلوب ، ولا ثمراتها المنشودة .

إن الأستاذ الطنطاوي لا يريد من وراء مقالاته أن يسيء إلى شعورنا معشر الجنس اللطيف ، ولا أن يجرح كرامة المتعلمات وأنصاف المتعلمات بَلْهَ العاميات اللائى لا يفقهن مما يقول حديثاً ، ولكنه — كما فهمتُ من غضون كلماته — يقصد إلى تذكيرنا جميعاً بواجبات طال علينا الأمد في الغفلة عنها ، فاختار لذلك أعمق الأساليب أثراً ، ليكون في توالى صيحاته عبرة لمن يخشى .

ألست معى في أنَّ كثيراً منا بات لا يعتبر إلا بالكلام الجارح ، والخطاب الصادع ؟ .

ألست معى في أن أنوثة الكثيرات من المتعلمات فينا قد فقدت غير قليل من جمالها حين استبدلت خشونة مشاركة الرجل في أعماله بنعومة تدبير المنزل وتربية الأطفال ؟ .

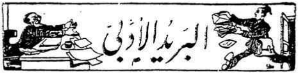
أو لست معى أخيراً في أن ثقافة هؤلاء المتعلمات لم تحل دون تقليد الأجنبيات على عمى ، وأن الرقة في خطابهن واللطف في مناقشتهن والهدوء في مناظرتهن لم تزدهن إلا عشقاً لكل جديد ولو كان فيه الموت ، وهربا من كل قديم ولو كان فيه الحياة ؟

اغفرى لى يا صديقتى إذا قلت : لا سبيل إلى إصلاحنا معشر النساء إلا صرخات مدوية ، وغارات متوالية ، تهيب بنا أن نوثق عرى إسلامنا قبل أن تنفصم ، وأن نجدد شباب عروبتنا قبل أن يهرم ، وأن نبث روح الفضيلة في جيلنا قبل أن يموت ...

فشكراً لك ياسيدى الطنطاوي على نفثات قلمك ... ولتمسك بيدك القوية الثابتة مع أيدى إخوانك من الرجال المخلصين بأيدينا الناعمة المرتبكة ؛ فقد كنتم معشر الرجال وما تزالون أقوى منا بأساً ، وأشد منا ساعداً ، وأثبت منا جناناً ، وأربط منا جأشاً ؛ غير أن الحياة لم تصلح في عهد من العهود إلا على يدين اثنتين : يد الجنس الخشن ويد الجنس اللطيف .

وأما أنت ياسيدتى ذات السوار فاغتنمى هذه الفرصة التى هيأتها لك بالكتابة مرة أخرى إلى الأستاذ الطنطاوي معتذرة ، واذكرى ما غشت تلك التى استعارت اسمك المستعار .

يد ذات سوار رقم ٢



إلى الأستاذ علي الطنطاوي :

لشد ما تتجلى فيما تكتب غيرتك الصادقة على أن تشيع فينا الفضيلة الإسلامية في أجمل مظاهرها ؛ فالتحلي بحلى الدين خلة شريفة كريمة هي أعز ما نحرص عليه . وليست المسألة يا سيدي أن مصر أو غير مصر أنكرت فضائل دينها عامدة متعمدة ، إنما هي أمراض اجتماعية نريد أن نوفق إلى علاجها ، وليس المجال أن تسألني : أحرام تكشف الفتاة أم حلال ؟ فما اختلفنا من قبل في حكمة الله الخالدة ، وليس مناط البحث أنني راض عما أنكرت حتى يصل النقاش إلى هذه المرحلة الخطيرة .

وإنما الأمم حين تتسلط عليها أشعة الحضارة المنسابة من غيرها ممن هي أعلى شأنا وأقوى مُنة تكون في حالة أقرب إلى الخبل . فإلى أي حد تحتفظ بحضارتها القديمة ، وأي قدر تأخذ من الحضارة الجديدة ؟ هنا تتراقص المغريات العاجلة ، والآراء السطحية وغير السطحية وهذا ما يسمى بدور الانتقال عند الأمم الحديثة حتى إذا ملكت قواها وتماسكت أعصابها عادت إلى رشدها ، وأفاقت من غفلتها .

لقد لفت نظري في كلمتك الموجهة إليّ (ولا نستطيع أن نصدق ، ولو أكدت القول لنا أن في الدنيا شابا متدفق الشباب يعيش بين بنات ناضجات الأنوثة ... إلى آخر ما قلت) ثم سقت الحديث إلى تصوير المعلمين والتلميذات تصويراً جانبيا ثم بنيت عليه أحكاما عامة ورتبت قضايا خطيرة .

ولا يسعني إلا أن أستفتي سماحة القاضي : ما قولكم دام فضلكم في خمسة أو عشرة من الرجال ارتكبوا ذنباً في مدينة من المدن ، ولم يثبت لدى القاضي ثبوتا قطعياً أن أهل المدينة شاركوهم في هذا الذنب : أيقول القاضي سداً للذرائع : اذهبوا بأهل المدينة جميعاً إلى النار ؟

أما الرجال في مدارس البنات المصرية فالواقع أن وزارة المعارف تنتقيهم بقدر جهدها من خيرة المعلمين دينا وعقلا وخلقا وهم متزوجون في غالب الأحيان . والذي بينهم وبين التلميذات هو رسالة العلم وحدها . والرجل مضطر أن يزن سلوكه وحديثه فلو أفلتت منه كلمة تؤول تأويلا سيئاً حذره أخوه في المدرسة وإلا أكل يوم أكل الثور الأبيض ، وقد اعتادت الرياح أن تنقل كل ما يخالف الواجب والقانون إلى وزارة المعارف ، وأقل ما يلقاه هذا المعلم وأمثاله أن يروا أنفسهم سريعا في مدارس البنين النائية . هذا المعلم وأمثاله يعدهم المعلمون في مدارس البنات بُلهاً قصار النظر . ومع ذلك فكلما اتسع التعليم العالي للبنات وتخرج العدد الكافي من مدارس المعلمات استغني عن الرجال على التدريج

واقبل يا سيدي الأستاذ تحياتي وشكري لهذه الغيرة المحمودة على الدين والأخلاق . والله الهادي إلى سواء السبيل .

حسنين حسن مخلوف
المفتش بوزارة المعارف

جحا قال :

عزيزي المحترم الأستاذ كامل كيلاني :

حظيت اليوم بنسخة من قصص جحا « سارق الحمار » وكنت حظيت من قبل بنسخة من « برميل العسل » وغيرها ؛ ولقد تصفحت الأولى وعاودت قراءتها وقدمتها للصغار من أولادي هدية فإذا الكبار يستولون عليها ويجدون في قراءتها لذة ومتعة شهدت تباشيرها على أساريرهم وآثارها في نقاشهم ، وما كدت أدخل عليهم بالثانية حتى هبوا يختطفونها ويتسابقون لبلوغ الأولوية في الفوز بمطالعتها . ولو شهدت أنت يا سيدي مثل هذا المنظر لكان فيه ما يرضيك ككاتب وفنان وما يرضى كبرياء نفسك كمبدع لهذا النوع من القصص الفكه المظهر والعميق المغزى ، والجزل اللفظ والمتين المبنى . فوقاك الله وجزاك عن أطفال الجيل أجل الجزاء ؛ إذ أنك بما تكتب تدعم بناء صرح جيل صالح مستنير ، ما أحوجنا — في إبان نهضتنا هذه — إلى صفاء ذهنه ونقاء معلوماته ونظافة خلقه وطهارة لفظه وعفة نفسه . والسلام

أمين ابراهيم كحيل
مدير الجامعة الشعبية

حول كتاب « دور القرآن في دمشق » :

تكرم الأستاذ عبد الرحمن محمد عبد الوهاب فدلني على تراجم بعض الأعلام الذين وردت أسماؤهم في كتاب دور القرآن ، ولم أعثر على ترجمة لهم فله مني الشكر الخالص .

وألفت نظر الأستاذ إلى ما يلي :

١ — ذكر الأستاذ أن الخضر بن المنير هو الخضر بن كامل بن سالم بن سبيع الدمشقى السروجى المعبر المتوفى سنة ٦٠٨ ثمان وستمائة (شذرات ٥ / ٣٣) .

ويعلم الأستاذ أن اسم الخضر قد ورد فى كتابى عند الكلام على أن وجيه الدين ابن المنجا — شيخ الحنابلة بدمشق — المولود سنة ثلاثين وستمائة ، ٦٣٠ هـ ، والمتوفى سنة إحدى وسبعماية ، ٧٠١ هـ — (دور القرآن ص ٥١ — شذرات ج ٦ ص ٣) — قد سمع حضوراً من الخضر بن المقير .

فإذا كان ابن المنجا قد ولد سنة ثلاثين وستمائة ، فلا يعقل أن يسمع الحديث ممن توفى سنة ثمان وستمائة .

وعلى هذا ، فإن الخضر المذكور فى دور القرآن ، هو غير الذى تفضل الأستاذ بإيراد ترجمته .

٢ — ورد اسم (أبو مسلم الكاتب) خطأ مع الذين لم أهتد إلى تراجمهم . والواقع أنى أوردت ترجمته فى ص ٨٥ من كتابى برقم ٢٠ . فمعذرة .

وللكاتب الفاضل أجمل تحية وأصدق شكر .

(دمشق) صلاح الدين المنجد

على هامش النقد :

الأستاذ النابغة سيد قطب ناقد من الطراز الأول ، وله فكرة خاصة فى النقد أبرزها فى كتابه « التصوير الفنى فى القرآن » ، وهو كتاب جدير بالإعجاب والتقدير .

ولعل من ذيول هذه الفكرة ما كتبه أخيراً فى « الرسالة » عن « مواضع النقد » . وهو يرى أن ملاحظة الشعور العام هو أهم ما يعنى الناقد فى الآثار الأدبية ، وأن الناقد يجب أن ينظر أولا فى صاحب الأثر هل أحس إحساساً صادقاً بالصورة الفنية التى رسمها ، أم أنه لم يحس بها أو أحس إحساساً كاذباً ، والذى يدلنا على مدى هذا الإحساس من الصدق أو الكذب أن نتأمل ما يهيجه الأثر الأدبى من الشعور ؛ فإن بعث فى نفس القارىء شعوراً واحداً فصاحبه قد أحس به إحساساً صادقاً ، وإن بعث شعورين متناقضين كان إحساس الشاعر أو الكاتب به مزوراً ، وضرب لذلك مثلا قول شاعرنا شوقى :

قف بتلك القصور فى اليم غرقى ... ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين فى الماء بضّا ... سابحات به وأبدين بضـــا

فالبيت الأول يبعث فى النفس شعور الذعر والخوف ، والبيت الثانى يبعث البهجة والانشراح . وقد ذكرت حين انتهيت من مقاله قول الله سبحانه وتعالى « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ، إنها ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جمالة صفر ، ويل يومئذ للمكذبين » فرأيت أننا لو سايرنا الأستاذ فيما ذهب إليه لغُمّ علينا الأمر فى هذه الآيات ، فالجو العام للآيات هو تهديد وإنذار وتخويف ، يقذف باللهب ؛ ويرمى بالشرر ، ولكن التشبيه لا يبعث فى النفس إلا الطمأنينة والهدوء ، والظل الأبيض الناصع . نعم ، إن منظر الجمال الصفر متتابعة مختلطة متحركة فى تموج واضطراب هو هو منظر الشرر ، ولكن هذا المنظر لا يبعث فى النفس ولا سيما نفس العربى إلا المسرة والبهجة والشعر والجمال ، فالجمل أليف إلى نفسه حبيب إليها ، وهو حين يكون أصفر يزيد فى إعجابه وبهجته فهذا اللون من الألوان المحببة ، ولذلك جاء فى وصف بقرة بنى إسرائيل أنها « صفراء فاقع لونها تسر الناظرين »

وإنى سائل الأستاذ سيد قطب رأيه فى هذا الجو البيانى ؟ ولست أتعجل فأنقض عليه رأيه قبل أن أعرف كيف يذهب فى تطبيق نظريته على مثل هذا وللأستاذ تحياتى وتقديرى .

على العمارى
(المدرس بمعهد القاهرة)



دعوة فى وقتها :

الرسالة الخالدة . . .

بقلم الأستاذ عبد الرحمن عزام باشا
الأمين العام لجامعة الدول العربية

عرض وتعليق

للأستاذ عبد المنعم خلاف

(تتمة)

أما ثالوث الفساد فهو الغدر والكذب والنفاق ، وقد أصبح اصطناع هذه القباحات فلسفة سياسية خطرة . والغدر غير الخدعة فى الحرب ، فإن الخدعة قدرة أمرها متعارف عليه مباح فى قوانين الحرب بخلاف الغدر فهو خسة وعجز عن المواجهة بالقوة . وهو قبيح حتى بين الأشقياء واللصوص ، والكذب فى السياسة والرياء فيها صارا طابعاً عصرياً يفخر به ساسة هذه العصور المتأخرة منذ أن سن لهم (مكيافللى) طريقته التى ينكرها الإسلام الذى لا يعرف إلا سياسة الوضوح والصدق ، ويرى الكذب والنفاق صفتين أدنأ من الكفر « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار »

فى البحث عن سند روحى للحضارة

فى فصول هذا الباب الستة يتجلى عزام باشا كرائد إنسانى عظيم من الباحثين عن سلام العالم ونظام جديد له ، وهو يقف فى الشرق الأدنى بين العقلية الشرقية والعقلية الغربية حين يحاكم آراء (ويلز) و(سانكى) فى الغرب و(غاندى) و(نهرو) فى الشرق

وهو يبدأ بالسؤال الآتى : هل الوصاية على الحضارة للأقوى أم للأتقى ؟ ويستقرئ مراحل تاريخ المدنية للاجابة على هذا السؤال فيراها شعلة متنقلة بين الأجناس لم تثبت فى مكان واحد ولا دامت لقوم وحدهم ، مما يدل على أن التاريخ يأبى أن يشهد لقوم دون قوم بالصلاح الذاتى والاختصاص بالقدرة على حمل رسالة الحضارة

وقسور علم الإنسان (أنثروبولوجى) عن إدراك الفروق الروحية بين الأنواع لا يسمح لنا بالاعتماد عليه فى تفضيل قوم على قوم والفروق البدنية لا تكيف الحضارة ، لأن أغلب الأنواع خليط من دماء وأجناس مختلفة قبل الحدود الأخيرة

وإنما الحضارة بجميع نتاجها المادى والأدبى أثر للحالات النفسية وغير لازمة للصفات البدنية التى تميز قوماً على قوم . وهذا مصداق للقانون القرآنى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

وتداول العلم والجهل دليل على استعداد مشترك ومتساو للخير والشر ، وهو يشير إلى وحدة الروح وتساويها ، وبعبارة أخرى وحدة القوى الذهنية أو تشابهها . وهذا يكفى لنفى امتياز عنصر على عنصر بصفات ذهنية تجعل لأحدهما رجحاناً دائماً .

ومتى وضح ذلك انهارت الدعاوى العنصرية وانهار معها مبدأ القوة كسند للحضارة . فالقول بالحق للأقوى هو قول يرجح بعض الأقوام على بعض دون سبب طبيعى ، ويبيح استبداد القادرين بالمستضعفين ، وهو أمر تأباه الحقيقة الدينية والشريعة المحمدية خصوصاً كل الإباء ، فهى قد جعلت الناس سواسية ، وجعلت الوصاية للأتقى والأبر

وقيام المدنية ودوامها رهين بالقانون القرآنى « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فما من قوم خرجوا على الدنيا برسالة العمران والعرفان إلا كانوا مهيئين لذلك بإيمان قوى وأدب قوى ودعوة قوية . وذلك الإيمان والأدب والعرف الصالح هو بارود القذيفة تدفع الأمم بقدر ما فيها من قوة واستقامة . وساعة الفصل بين التقدم والتأخر رهينة بحلول السيطرة المادية محل السيطرة الروحية ، حين تغلب شهوات الأبدان شهوات الأرواح ويتغلب الترف الذى يورث أهله الضعف عن حمل أمانات الحضارة

ولا منقذ لهذه الحضارة الحالية من وعيد الله ، إلا أن يرزق الله العالم بقوم خماص البطون يحبون الكفاح للحق كما يحب المترفون المال والمتاع ، ويرثون هذه الحضارة ويردون للدنيا ذلك العقل الضائع والإيمان القوى

ولا بد من وضع نظام جديد للعالم يجعل الوصاية على الحضارة دائماً للأتقى ، ولأجل ذلك يجب أن نتحرر من النظريات القديمة التى كانت موضوعة للعالم قبل أن يضيق نطاقه وتتقارب مسافاته

بسرعة النقل . والمدنية فى رأى (كبلنج) هى النقل . وعلى ذلك يكون الفرق بين عالمنا والعالم القديم هو ما بين سرعة النقل فى العالمين

ويجب أن نراعى فى وضع النظام الجديد فروق السرعة بين ما فى عالمنا وعالم الغد ، فلا نضع نظاماً جامداً بل مرناً يسمح بالتصرف فى الأزمان الآتية ، وهذا يكون بوضع نظام سلبى تمتنع فيه بتاتاً عن تسليط ما بأيدينا من قوى التدمير والتخريب وعن مضاعفة العوامل التى اضطرب لها وجودنا ، ولا أمل فى شيوخ الساسة والعامة ، بل الأمل فى القدرة العليا التى جعلت الحياة الإنسانية مرنة تتكيف بحسب الظروف . ولنؤجل النظم المثالية المجردة ولنبدأ بعمل الواجب قبل المطالبة بالحق ، ولندرب الناشئين على فهم ذلك ، لأنه هو الطريق المجرب فى الاصلاح دائماً ، ولنجعل أعمال الواجب والتضحية هى أعمال الفخر والتقدير ، ولنحول الغرائز ونتسام بها ، ولنصلح الرأسمالية بعد أن تضاعف خطرها باستخدام الآلة التى ضاعفت من مشكلة التعطل ، ولنضح بالاستعمار لنجاة الحضارة ، ولنفهم أن عالمنا واحد لا يتجزأ السلم فيه ، فيجب أن تكون له قيادة عالية مشتركة تتدرج إلى حكومة عالية . وسبيل ذلك أن توجه النشء إلى أن تكون الحكومة العالمية هى أملهم وذلك باتخاذ تربية عالية بجوار التربية القومية وبتعويدهم الغضب للمصلحة العالمية العامة .

ويجب أن نتعهد النواة الصالحة فى « هيئة الأمم المتحدة » ونحذر اليأس ونصبر ونصابر حتى تصير هذه الهيئة محكمة حقيقية للأمم تضحى فى سبيل استمرارها وقدرتها كثيراً من حقوق السيادة عن طيب خاطر .

فى انتشار الدعوة

فصول هـذا الباب الأربعة تعتبر ملحقاً بالكتاب يبين تاريخ انتشار الإسلام منذ ظهوره ، والمقصود بهذا الباب هو دفع التهم والأوهام التاريخية فى زعم أن الإسلام انتشر بالسيف والإكراه . ولا بد من إدراك ما فى هذه الفصول كخطوة أولى فى سبيل فهم القوة الذاتية للاسلام ، تلك القوة التى تدفعه إلى الانتشار بما فيه من الحق والصلاح والاقتناع ، لا بالإكراه ولا بقوة السلاح .

وقد بين المؤلف تاريخ انتشار الإسلام فى الوثنيين وانتشاره فى الأمم المسيحية المحيطة بمهده الأول ، وانتشاره فى « الصليبيين » الذين جاءوا لمحوه ومحو أهله فسخر كثيراً منهم وجندهم له .

ثم بين تاريخ انتشاره فى الأمم الأوروبية . وفى كل هذا البيان اعتمد على المراجع الأوروبية المنصفة وعلى الأسانيد والتحليل للعوامل والظروف ، بما جلى تاريخ انتشار الإسلام بالحجة والاقناع

ختـــام

وقد ختم الكتاب بهذه العبارة التى تناشد الروح الجديدة فى الشرق أن ينهض برسالة الإنقاذ . قال :

« وبعد » فهل يكتب لسكان الشرق من المسلمين والمسيحيين الذين تتعلق نفوسهم دائماً برحمة الله وتترقب هداه إذا اشتدت الكروب والظلمات ، أن ينهضوا مرة أخرى بميراثهم السامى الذى يقوم من عوج النزاع الفكرى والاقتصادى والعنصرى ، ويلطف من حدة المزاج الغربى ، حتى يؤمن بالأخوة الإنسانية ويعمل لخدمة السلام العام بإخلاص نية وحسن توجيه ، بما مكن الله له فى الأرض !

ذلك ما نسأل الله رب العالمين أن يعجل بتهيئة أسبابه « إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

هذا ختام الكتاب ، ولكنه بدء دعوة ستجد من يحملها بقوة وإيمان ، لأنها نداء الحياة والزمان وروح الحضارة العالمية التى اشترك فى حمل شعلتها جميع الأمم ، والحياة الحالية نبوة ! نبوة الطبيعة وقوانينها وحقائق الأشياء وبراهينها فلا تحتمل شكا أو جدلا فى قيمتها ، وإنما تحتاج إلى الفهم والإيمان والإخلاص والعمل لإنقاذ الإنسانية وإنقاذ الحضارة من فلسفات الشك والهدم والمادية الصماء .

عبد المنعم خلاف